

قصة حياة

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الأسكنية

قصة حياة

تأليف
ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

قصة حياة

هذه ليست قصة حياتي ، وإن كان فيها كثير
من حوادثها : والأولى أن تعد قصة حياة
إبراهيم عبد القادر المازني

مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حدثي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفي إلى أمي أسأله عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لداقي فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترفي لي ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت مترن : « اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أي نعم . فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يبق لنا شيء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعري ؟ » :

فلم ترحمني . وقالت : « قد نجوع ونعري ! من يدري ؟ ولكن أملي في الله كبير . وعندي حلي ومتاع لا حاجة بي إليه . فسأبيع من ههنا ونقتات ونكتسي . وستواصل التعلم - ما من هذا بد - حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العريس . فما يثبت من رحمة الله . ولكنني لا أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغرى بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئاً » .

فمرت أركض لأن هذا واجبي ، وما تطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي . على حين كان يركض غيره ، للهو والتسلية .

فعرفت في التاسعة من عمري - وهي سن غضة جداً - أن هناك واجبات تؤدي للاثم ، وحقناً تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة : وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وإني فقير وأن كنت مستور الحال . ولكن السر لا ينو الشعور بالفقر وغمضاوته ومضضه . فأرهدف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قاي فيجزه ويقطعه . فتزعت شيئاً فشيئاً إلى الإنقباض عن الناس ، واتقاء الخرض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعى نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوى هذا الميل في نفسى وعمقه أنى بعد الذى سمعته ووعيته من أمى . قصدت إلى أخى الأكبر - وهو من غير أمى - وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذى أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أتلّف . فأحسست أنى شبيت جداً عن الطفولة في تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل : أليس لكل امرئ حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجنى على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك ..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شذراً . وإذا كان الأخ يجنى على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب الذى لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن فى وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء

نفقات التعاليم ولكن « الواسطة » يطمع في جزاء أو « رشوة » فأبت أمي كل الإساءة . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يطلب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفنتني من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبيننا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استدلل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظني بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسي لأفرغ من التحصيل بأسرع ما استطاع ، فيتسنى لي بعد ذلك أن أكسب رزقي ، وأنقل نفسي وأهلي من هذه الفاقة التي منينا بها لغير ذنب جتيناها .

وترك هذا كله أثره في نفسي ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه ، وصرت أشعر أتي غريب إذا ألفت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر في وهمي أنهم لا يخفى عليهم أتي نشأت فقيراً . واني امتحنت في صباى أقسى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا تخيلة مقصودة يشقون لي بها جفوني ويطلعوني على ما بيني وبينهم من بون .

وكنيت قد كبرت وأصبحت معلماً ، وعندى فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يررثني هذا عتده نفسية أو « مركب نقص » كما يدعى ؛ فعالجت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا في حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعي ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفل ، ولا يحبون حياة صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل ، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بها السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أنى أسرفت على نفسي وعلى الناس . وثبتت أن لا داعي للمرارة ، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزماً وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت في نعمة سابغة لكنت حرياً أن يفلسني التدليل ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن ييؤ البريء بإثم المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرئ يزل ، والعصمة لم يرثها إنسان وحتى ما بنى أخى قمن بالغفران . فما هو في ذاته بالذي توعد دونه أبواب العفو ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشتها لو كنت مكانه وكان حبل على غاربى كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهدها إلينا من الكرب الجسام ، فهو جدير بالثناء والرحمة والنقمة . وما شهدت النعمة التي تقلب فيها زمنا وجيزاً ، ولكنى شهدت الندامة التي ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن منى ، ولكنه هو كان أشد توقيراً لى منى له ، وأعظم بى تحفياً . ولما نشرت أول كتاب لى - وكان ديوان شعر - حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة فتناولها معجبا ، وقلبها جذلاً ، وشرع يقرأ ، فما راعنى إلا دمه المنهر ، من فرط الحنو والزهو . فهضت لى زوجته وتشاغل بالحديث معها ، فما أطبق البكاء ، ولا أعرفه ، وإنى لأدري أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثاً الله أدري بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتنا عبراتى وعلمتنى أن أبكى بقلبي دون عيني ، وأن أسترضعفى عن الناس ، فلا أبلو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة .

والفضل في ذلك لأبي ، فقد جثها يوما أبكى لأن غلاما ضربني فأوجعني ،
غنظرت إلى باسمه ، ولم تربت على كفتي ، ولم تكفكف دمي ، ولا واستني
وإنما قالت لي : « رجلنا يبكي » ؟ فإذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟
فخنجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت - كأنما كنت فعلت - « ولكنه
أكبر مني » قالت لاشك ، ولكن حيلتك ينبغي إذن أن تكون أوسع ، فما
غلبني بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما ، حتى خافني صبية الحارة
وحرصوا على اتقاء شري .

والعبرة بالخواتيم - وقد انتقلت في الحال بعد طول الضنك إلى سعة
مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ووجدت أن التسامح الذي
مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الحاطر ، وسكينة
النفس ، من تلك المرارة القديمة التي كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان .
والفيتني أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز
هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معي في نعيمي بها ، وأحاول أن
أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم
الدفع ، وتشيع الابتسام والجدل في وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم
من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا ، وأن أجمل ما كان يبدو لي ولهم
حميما ، وأزين العاطل ، وأرقق الماء في حواشي النسيم ليعود أندي على
القلب وأثلج الصدر .

وتوسعت في هذا وتعمقت . فقلت : إني مثل الناس غيري ومنهم ،
وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقا قائما بذاته ؛ أو بدعا في هذه
الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعني أن أعرف
نفسي ، فصار دأبي بعد هذا أن أخلو بنفسي ، وأحاسبها ، وأراجعها ،
وأغوص في أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغري بها غرائزها المهذبة

أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدى كلما بدا لى ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسى فى مكانه ، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أننى كنت محله ، وكان يحيط بى ما يحيط به ، وكان لى مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد - غير مغرور أو مخدوع فيما أرجو - أعدل وزنا وأكثر إنصافا ، وأسرع إلى تمهيد الغدر منى إلى سوء الرأى .

وليس معنى هذا أننى الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون ، أو أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكنى أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسن ، أجدى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النعمة ؟ . إن الذى له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدى إلى وسيلة الإصلاح ومداها وليست ثورة النفس بالنى تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا فى التفكير ، وأن تجمح بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذى يعين على الصلاح والخير ، والتفكير المادى والتدبير الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأى ، والخلق فى التدبير ، ولا سبيل إلى شىء من هذا إذا اهتاجت النفس ، وقامت قيامتها وثارت كالألجة المربدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدرى ! سوى أنى أطول اعتبارى أن أتدبر نفسى وأدير عيى فى جوابها ، أصبحت أعتقد أنى أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعنى أن أكشف لهم عن عيوبهم صورة صافية - لا مزورة ولا مموهة - من هذا الإنسان الذى هو أنا ، والذى هو أيضاً كلى امرئ غيرى . وليس هذا بالمطلب المهن ، وما كان مناله قط ، ولن يكون دانيا . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء

أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان محدودة ولكنه ليس عاجزاً كآكل العجوز ، ولو أن آكل إنسان أخاص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل في وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد ، أنى أقول لنفعي إذا أنا لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذى يفد الخطى وراء جبلى ، فإخبر أنى كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألمت الحقائق ؟ إن من الأم الأم أن تبخل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذى يضمن بالرخيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفى الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه ، فى خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات فى المحنة أن يحفظ اللقمة من فم ابنه وهو ضئوه وفائدة كبده لأن التضور وخوف التلف الوحي يثيران غريزة حفظ الذات فيذلل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهى لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفى وسعك أن تهدي منها ولا تخش عليها النقص ، ومن المحقق أنك أخرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك وألطف حسا .

فالضن بالمعرفة ضيق عذل وسوء رأى ، ولو لم نفس وخسة طباع — بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما — لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت و ألم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت فى الدنيا بالوحيد الذى ينظر فيجد ، ويبعث فيتهدى ، ويعالج فوق .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقنى فاستطردت . ذاك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأموال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع فى الروح لأول وهلة أن الخبر شئ آخر .

تلك كانت حياتي - فقد نشأت في بيت صارم التقاليد في ساحته الواسعة مصلى ومبضاة ، وعلى جانبي مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلي الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلًا لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المفرقون من هؤلاء الأتباع في المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالحلوة ، وفي الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة أخرى ، وتعتقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « الفول النابت » والخبز .

وكان يروقي هذا ويستولى على خيالي ، فأشاركهم فيه ، وأبلى الورد الذي يتلونه ، وأصلى على النبي كما أراهم يصلون ، وأهز رأسي وجسمي في الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول - عبثاً - أن أجعل صوتي غليظاً عميقاً ، وأرافقهم في الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأخرج على قبر أبي فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبي ، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبي وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصاداً في النفقة ، وعز على ذلك في أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أني أذكر مدخل البيت وساحته الرحبية وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب

أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ماعدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر
أنى كنت أدخل على أبي فى مكتبه وعنده أصحاب النضايا ، فأقف إلى
جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى
يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا .
أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده فى جيبه ثم يخرجها بما تخرج
به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أعطيته ،
فألقى أخى الأصغر ينتظرني عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد
بائع الدندمة .. فندفع إليه مامعنا ، وتأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو
لأنحمده فنمبل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات ولبيا وما إلى
ذلك - فبدد الفلوس والسلام وكان أخى أصغر منى وكان جميلاً مشرق
الديباجة سمياً وبضاً غضاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن
هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوماً
أنى كنت عند عمى ، فلما مر « بائع الدندمة » أقبل عليه الغلام
بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجاته ، ولم يجد أخى معه ثمن ما أكل ،
فخلع طربوشه . وعرض على الرجل أن يقبله بديلاً من الثمن وكان أخى
ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فضى الرجل به ولم
يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عيني ، أن جدى دخل على أبى
فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً وأفسح الزباين له
ليقعد ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبى وطلب منه شيئاً ، فاستمهله هنا
فما كان من الجلد إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كتف أبى ، فتأوه
واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ،
وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت .

وكننت أنا حاضراً هذا الذى حدث ، فشق على أن أرى جدى يضرب

أبي بهذه الهراوة الضخمة ، فخرجت إليه فناداني وأدنانى منه وأجلسنى على حجره وشرع بلاطفنى ويدعوى لى ، ولكنى كنت مغيطاً محققاً فتناولت شعرات من لحيته الكثة وشدتها وفى نيتى أن أنتفها كلها عقاباً له ، فزجرنى وأدار وجهه ورفع يده له لتخايص لحيته ، فبدأ لى قذاله فصفعته فطار عقله ودفعنى فارتميت على الأرض ورأيتة يميل على هراوته ويتناولها فوضعت ذيلى بين أسنانى وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدى شهراً يأبى أن يكلمنى أو ينظر لى ، وأنا أكاد أجن من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه لى الرضى كتب لى حجاباً وجالده — حفظاً له من التلف — وعلقه على جنبى الأيسر ليقينى الله سوء الأدب ، إذا كان قد وقع فى روعه ووقر فى نفسه أن الناس حسدوني فكان منى هذا الذى أسخطه لى .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت . . . هذا إثم كبير ومعصية توصل من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت ألا تكفيها حجرات البيت التى تطل نوافلها على الطريق وعلى فناء الدار . . . وصحيح أن الشبايك مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفى ؛ بل كان من العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيج من الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على الغم أو اللجاج ، ويردنا لى البيت والحجرات ذات الشبايك المسمرة مخافة أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ؛ أو يصادفنا « السماوى » فييتنا ، أو يظهر لنا غمريت فيركبنا أو برعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العقاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميل وتزهق أرواحنا فى الغرف

المكتومة ونشهى أن ننعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفاقة اللمعان ،
ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا في مثل منى ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ
نهش إلى الغرف في الليل فتأبى أمي وأمها ذلك علينا وتصرفاتنا عنه لأنه عيب ،
وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها - تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها
وقد تضربها حلقة ، وتجرني أمي من يدي أو من شعري إذا حزنت ، أو تحملي
وأنا أضرب بيدي ورجلي في الهواء وأصرخ وأصيح وقرقلني برغم أنني على
السريـر وتغطيني بالحاف ونروح تحدثني عن العناريت وتصف لي ما تصنع
بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروى لي
قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريرة المرتزرة » و « أبي
رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما فأنضائل ويدخل بعضي في بعض ، وهم
بأن تتركني وقد اطمأنت إلى سكوني ووثقت أني غير مفارق فراشي في ليلتي
تلك ، فأصبح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبي لأن « الحاف » يمدق
في بعينين تقدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لي عليه رسم يشبه
ما سمعت من أوصاف أبي رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من
الجدار ويمبل على بأسنانه وأظافره .

وبعد لأي يغلبني التعاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريت والإمساخ والليل المخوف
والنهار الذي يعيد الطمأنينة ، والسلام المظلمة وما يخجىء لي عندها ، ولم تكن
أحلامي تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت في منامي أني لاعبت هذه أو
تلك من البنات وأن أهلي دهنوني بالسمن والعسل وقيدوني ورموني في ركن
حالك السواد وتركوني للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات . :

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملاً ، وهناك توضع قدمي في
« الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » - فقيه الكتاب - « بالخريدة » أو « المقرعة »
أو بكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهذا يبدأ النهار .

لم يطل مكثي في « الكتاب » لأن أمي أصرت على المدرسة . وكان أبي مشغولاً عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى « استنبول » فكان يقضي هناك ماشاء الله أن يقضى - شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويحيى بغيرها وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذلك فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعنى - كما لا أحتاج أن أقول - أني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعباد بالله ، وإنما أعنى أن اللون الأسمر أثر عندي وأحب إلي ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن في منزلة واحدة ، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولنفسى ، فإني أسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولدي أكره أن ترهى على واحدة بياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه :

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنية أنفها آثار أسنانه ، ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزراً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب ، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمينه ويسرة فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها :

ولم يهجر أبى (البيت الكبير) فى سبيل هذه الزوجة الجميلة - فتد
كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معزوراً - ولكنه كان يقضى
عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته فى البيت الكبير فكان
يقضيها مطرقا يسمع التقرير والتأنيب من جدى تارة ، ومن أمى تارة
أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لا يزيد على
الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإنى أحرق طياش سريع الغضب
حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبى أن
أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده فى البيت الكبير فضلا
عن عمله المضى ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار ، وكان لنا
أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم فى الشهر الأحمر ،
ومن حوادثه التى تروى أنه كان يصلى الفجر فى مسجد الحسين ، فخرج
مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألقى باب المئذنة مفتوحا ، وكان المؤذن
شيخاً هرمأ ضخم الجسم ، كالقيل الصغير ، وكان أعمى ، فخطر لأخى
أن يعابه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذى
لا يدري أن وراءه هذا الشيطان ، وأنه ليرفع الصوت بالآذان ويصيح
فى سكون الليل (حى على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة
ويصيح متمما (حى على الفلاح) فريع الرجل وله العذر ، وكان ضخما
كما قلت ، وعلى صدره قنطار من الشحم ، وكانت صلوة المفاجأة عنيفة
فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم
الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدام المسجد بالبحث
عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قريـر العين راضياً عن نفسه
ونام نوم الصالحين .

وكان أبى فى وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية فى المدرسة
المخدوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو

الذى زهد أبى فى التعاليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء
أخى فى هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية
لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يغرى الطلبة زملاءه بالخروج فى فحمة
الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ويتخذ
منها هوزملاؤه حبلا يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين
يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ،
وتماسكا وتضاريا فانكسرت رل الضابط ولا آخر لحواث هذا الأخ
وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعا بالعبث .

وكنى فى السادسة أو حوالى ذلك لما أخرجتنى أمى من « الكتاب »
وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيدا لإدخال مدرسة حكومية ،
ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلا » واحداً للصبيان ،
وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها
وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل
ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة
ضيقة ، توصد علينا بالمفتاح ؛ فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى
قتلنى فيه الدووس وهى الساحة التى ناعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً
وكنا إذا تركنا المعلم نرحل الأدرج عن موضعها . لنفسح مكانا لنا
ونحن نتقاذف الكرة أو نجري « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا
زجاج النوافذ وغرم أبؤنا ثمنه .

وكان مساعد المدير رجلاً فظاً كما قلت - إذا أخطأنا أو قصرنا -
يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العارى
بالخيزانة . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً
على دعوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكساً وركلاً ،
ومزقنا له سترته الطويلة - الاستانبولين - وخطفنا العصا من يده وأذقناه

وقعها على أصابع يديه وعلى ركبته ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين .

وكان ابن زوجة أبي معى فى هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحث بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة فى شارع « تحت الربيع » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبى ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى فى شارع محمد على على ، مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللى » وأظن أن زوجته هى التى هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركيا ، وفى هذه المدرسة كان الضابط — وهو تركى أيضاً — يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان فى يده ، وكان يكفى أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبى أن ينقانى إلى « فصل » أرقى ، لأنى صغير السن ، فبقيت فى السنة الأولى عاداً آخر بلا موجب سوى حذلقه هذا المدير أو الناظر الذى استفضأ جسمى واستصغر سنى ، واستكثر على السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمى كتبى وكراساتى ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقرانى ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبى حسرة ولطفة . وأسمعهم يصفوننى ، « بالعقل » و « الهدوء » فألعن « العقل » وأذم « الهدوء » فقد كنت مكرها على ذلك لمدفوعا إليه بطباعى وميولى ، ومتى رأيت طفلاً ساكناً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض

أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجرى وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته .

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لارغبة في التعليم ، ويراني أبي فيشئق على عيني أن تؤنيهما القراءة في الليل ، فينهاني عنها ، فأطوى الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعاً بهما الصمت ، فأفتح فمي وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرني ، ويقول لي : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول أنه ليس هنا صغار أحشر نفسي معهم فمع من أتكلم ؟ فيعيبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفذ صبري فأعود إلى الكلام فيقول لي ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعترض بأبي أراه يتكلم وأرى أمي تتكلم فلماذا يليق بهما ما لا يليق بي . فيتسم ولا أدري لماذا . ويربت لي على كتفي وخذلي ، وقد يقبلني ويمسح لي شعري ، فأتململ وأقول له إنني أريد أن أتكلم وألعب فمع من ١٩ بنت الخادمة لا يليق أن ألعبها لأنها بنت ، وأخي أصغر مني بأربع سنوات وهو على كل ناظم :

فتحملني أمي إلى الخادمة ، وتوصيها بي ، وتتركني معها ، ففسري عني بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبني الناس :

وكنت أرى أبي يلخن وهر متكىء بكوعه على مخدة فيتلوى الدخان في جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأنتبعه بعيني تارة ، وبأصبعي تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أقلد أبي : فجئت بورقة ولففتها على صورة السجارة وجعلت أضعها في فمي وأنا متوكيء على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبي ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضربت النار في اللفافة واتفق أني وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو ، وأختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة في البيت ، وكان

كل من فى البيت يجرى بالطشوت والأباريق والقلل لإطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت . وكان السقايمربنا كل يوم فيلاً لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة ، ولا سيما فى الأحياء الوطنية ، فلاتليفون ولا ترام ولا سيارات ولا شيء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافىء تتقاضى خمسة جنيهات إذا دعيت لإطفاء حريق . على أنى لا أدرى بماذا كانت تطفىء الحرائق ولأما هناك يجرى فى الأنابيب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقنى القراء ، والمثل يقول « يعملها الصغار ويتع فيها الكبار » أى والله :

كان لأخى الأكبر زوجتان من قريباته تقيان معنا فى بيت واحد لهما منه الدور الأوسط ، ولنا جدتى وجدى وأبى وأمى - الدور الأعلى - والمكتب الغرب - أو المناظر - التى كانت فى ساحة البيت ، أو فناءه . وكان أخى - كائى - مزواجاً . فأما أبى لأعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف فى أسرتنا كلها من كانت له زوجتان فى وقت واحد ، أو من طلق زوجته أما أخى فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين فى حياة أبيه ، وهو لا يكسب قرشاً بعرق جبينه ، ولا مورد له إلا ما يجود به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه وزوجه وهو صغير - كما كانت العادة فى ذلك الزمان - ليفرح به ، وكانت ليلة الجلوة ليلة سوداء أعنى أن السراى أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغنى يصعد إلى « التخت » وإذا بنبأ بجىء من مسمخراط أن للمرحوم إبراهيم أفندى الوكيل توفى فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا فى جمل وسرور وجور ، يتهيأون للسفر إلى المآتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخى نسلاً ففاق أبى ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علته من « الولد » فما العمل .. العمل أن يزجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » - أعنى أن أخى - ظل لا يعقب شيئاً ، ولم يفد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخى هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبى أمى ، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عتياً ، وأن يحرم ابنها - أخى وأختى - بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب في الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وأن تحتل ما يديه بعلمها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلاً طلق أمه - أو ماتت لا أدري ، فتولت هى تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس في حياته وأحنهم عليها وأعمقهم حزناً لما وافاها الأجل .

وأعود إلى أخى بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبى ، فتد كان السهر والتدخين محرمين على غير جدى وأبى ، فأما جدى فكان يتخذ ما يسمى « الشبك » - بضم الشين والباء - وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها بحشى شئ بالدخان وتوضع عليه الحمرة . وأما أبى فكان يتخذ السجائر ولكن ما كان مباحاً لهما ، كان محرماً على سواهما - لا أدري لماذا - وإن كان أخى ذا زوجتين .

وقد رأيت أخى مرة يدمس السيارة في جيبه وقد خرج عليه أبى فجأة فتحرق الجيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبى يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين ، حدثني أخى بعد أن كبرت وأصبحت رجلاً مثله لى شاربان أقتلها ولحية أحلقها ، قال : (لم يكن باقياً على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لى أن أقص شعرى قبل أن أذهب إلى الحمام) - وكان أخى مغرماً بحمام السوق أو الحمام التركي ، يؤثره على ما عداه - وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كتة

هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها ، وسنمت فوطته الحمراء المخططة ، والطشت الذى يضعه لى عند رقبتي ويترك لى حبله ، فيسيل الماء الذى يصبه على رأسي بلا حساب ، على ثيابي وينفذ إلى بدني ، قتلت الشمس حلاقاً آخر ، وذهبت أجوب الشوارع وعيني على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من الأحياء الوطنية ودخلت فى الشوارع التى يكثُر فيها الأجانب ، واهتديت إلى حلاق أجنبي ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل على يرحب بي ، وأجلسني على كرسي وثير لا عهد لى بمثله ونشر على صدرى فوطة بيضاء مكوية ، لها كمان يدخل فيها ذراعاى ، وقص شعرى ، ثم نفّض الفوطة وجاء بغيرها وحلق لى ذقني بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح على أن يصنع كيت وكيت مما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل أهر له رأسي أن نعم ، كلما عرض على شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور » فهزرت رأسي موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعنى ، فدعاني إلى ما وراء ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدري من أى الفراديس جاءت ، وقال لها كلاماً فابتسمت لى وتناولت كفي الكبيرة الخشنة التى ينطى ظهرها الشعر ، وعكفت على أظافرى تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لى به وأنا أكاد أموت من الخجل ، وصدقنى حين أقول لك إن هذه أول فتاة غربية لمست كفيها كفى ، فإذا أضفت لى دلماً أنها كانت ساحرة الجمال ، ذهبية الشعر ، وضاعة الحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن ابتسامتها فاتنة ، وفى صوتها علوية تذيب المرء ، وأنها هيفاء ممشوقة ، وخفيفة لطيفة ، وأن فى نظرتها ليناً يغرى بتطويقها وضئها ، وأنى ما عرفت من النساء إلا البديئات الراقى يخنق روحهن ما عليهن من أكداس اللحم — إذا أضفت هذا كله — فإن فى وسعك أن تدرك عذرى حين أقول لك إنى عشقتها . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكنتم أنظر إليها كالآبله ، ثم فتح الله على ، وأطلق لسانى من عقاله فقلت وأنا مضطرم الوجه من الخجل : لى لم أكن أدري أن المانيكور هو

هذا ، وإنى آسف فإن كفى كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ،
وأحسب أنه لا يلبق بي أن أدعها تصبغ لى أظافرى ، فإنى أخشى أن أضطر
إلى إخفاء يدى حتى يذهب هذا اللون ، وهممت بأن أنزع يدى من يدها ،
فشدت عليها ولم تركها لى ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها فى حياتى :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الحشنة ، وإن أكثر ماترى
من الأكف لين بض غض كأكف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها فى
جواب ذلك ، ولكنى أنفت أن تصبغ لى أصابعى ، وأبيت أن أناولها يدى
الأخرى وقلت حسبي واحدة ، وسألها : متى يزول ذلك ؟ فقالت :
« أوه ! إنه لا يدوم . . لا تخف » فاشتبهت أن أقول لها أنى أحب أن
أراها مرة أخرى ، ولكن لسانى وقف فى حلقى ، فلم أنطق بحرف ،
واكتفيت بأن أمد لها يدى مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهزتها
كأنما كنت أصافح رجلاً فأدهشنى أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابى السخيف : « ولكنى لا أستطيع
أن أقص شعرى كل يوم » فابتسمت وخيل لى أنها تكاد تميل على
وقالت :

« إنى أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساءً » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فسأنتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخى وهو يقص على هذا الخبر : « وقد كان . . تعلقت بها ،
وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفتنى أشياء كثيرة لم أكن
أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت ، وقد أطلعنها على كل شيء
ولم أخف عنها شيئاً ، ففهممت وعذرت ، وبقينا صديقين حوالى عامين
حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعتها
بالرضا به لإشفاقا عليها ، ورضية فى الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمنى لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرها ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي تناولت يده لأقبلها ، فسألني :

ما هذه الحناء التي في أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفي ظني أنني لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إنني لما عرفت ما هو أبيت أن أصبغ أظافر يدي الأخرى ، ولكن وجهه أربد وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن » ونهض فدعا إليه الخادم « العم محمد » كما نسميه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه ثلاثة من الزبائن الأقوياء ، فأشار إلى فربطوني بالحبال ، وألقوني على الأرض ، وأنا من فرط الدهول لأقاوم . وجاء أبي بخززانة طويلة وأهوى بها على ، لا يتقى شيئاً ولا يبالى أين وقعت وماذا أصابت من بدني ولم يتقلني إلا خالتي (يعني أمي ، فقد كان يدهوها خالتي) فقد أسرعر وانحدرت إلى ولم تبال هؤلاء الزبائن ، ولم تعبأ بظهورها أمامهم سافرة وفي ثياب البيت ، وارتمت على ، وجعلت نفسها بيني وبين الخبززانة فاضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى « المناظر » ثم خرج .

وأم أنا الحكاية فأقول إنني توجعت لأخى وحزنت لما أصابه من الضرب الأثيم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع شيئاً ، وإلا حل به غضب أبي ، ولكنني كنت طفلاً لا أدرك هذا إدراكه ، فصممت على إخراج أخى من محبسه وفك وثاقه . وكان لابد من الحيلة ، ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخى الأصغر ، وجليلة بنت خادمتنا ، وكان مفتاح « المنطرة » مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونهجين منه غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت إلى أخى وجليلة أن يبعدا به عن فناء

البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعزاني حل الحبال فجئت بسكين وتقطعها ، وأطلقت سراح أخى وقد ظل يحفظ لى هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغي أن أذكر أنى عدت إلى الخادم فلدست له المفتاح فى جيبه وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخى كيف وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التى كان موثقا بها ، وأن يفتح الباب ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه ! لقد كان عفريتا .

وكان هذا أول مر حرصت فى طفولتى على كتمانه .

قلت لنفسى بعد أن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، « اسمع يا هذا ، لقد رأيت أباك يضرب أخاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك — كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتمل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطة الأليفة أو كلب البيت الذى يتبل منه أصحابه العيث ولا يرضون عنه أه يسرون به إلا إذا لعب وتشيطان وأظهر لهم نشاطه وذكاءه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أملك حية ترزق ، وفى البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامى عنك وأخولا كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لا يسهه إلا أن تشغل عليه الشعور الخفى بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوماً بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذى سيحل محله عاجلاً أو آجلاً ، كما حل هو محل أبيه — أى جدنا — وإن كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواغى الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنة فى الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طبل بالغا ما بلغ طوله وعرضه ، أو لا أدري ما العلة والباعث الصحيح ، وأنه ليخطرلى مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقتضى .

وخطرلى وأنا أحدث نفسى بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا فى نظر الأبناء ، ولا يمكن أن

يعد الابن أباه إلا شيخاً هرماً ، تقضى شبابه من زمان طويل ، ولا يمكن أن عليه وتعرى هو منه ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ الفانين ولو كانت الحقيقة أنه ما أنفك قويا كفثا للحياة .

وذكرت - وأنا أدير هذا المعنى فى نفسى - أنى لم أسمع ولم أرقط : فى طفولتى ، شيئاً - كلمة أو إيماءة أو نظرة - تشى بالحب بين أمى وأبى . وكان يخيل لى أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ . ولكنه هو الذى كان يبدولى فى تلك السن الغضة . ولقد مات أبى وأنا صغير وخلف لى أمى فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع فيها السراد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ما طابت به نفسا فى حياته ، ولكنى أظنها كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألهما فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى فى كهولتها الداوية ، وألح عليها بالسؤال فتنهرنى ، وترجرنى عما تظنه عبثاً منى ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين فى هذا الرجل المزواج المتعب الذى جعل حياتك معه جحياً فائراً بالغيرة » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لاتساوى الظفر الذى كان المقص يطيره من أصبعه » وترانى ابتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحياناً تطردنى من مجلسها ، وهى تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لى « قم . طيب قم . كفى قلة حياء . » فأنهض طائعا وأميل على رأسها فأقبله فترضى عنى وتدعو لى فأقول لها ويدع على الباب .

« اسمعى . لم أعرف أبى كما ينبغى أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذى عرفته مضافاً إلى الكثير الذى سمعته منك ، يقنعنى بأنه هو » لم يكن يساوى الظفر الذى يطيره المقص من أصبعك وعزيز على

أن أقول هذا عن أبي ؛ فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة ، وإذا كنت أبحسه حتى فذاك لأنك عندي بمنزلة لاتدانيها منزلة ، أنت خير الناس وسيدة الدنيا ؛ وكل من عداك هباء . وأسمى أيضا . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معي في الدنيا . مجرد شعوري بوجودك يرفع نفسي ، ويعصمني من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتني أسأل نفسي - هل ترضى عنه أم لو علمت أو لا ترضى - فأقدم أو أحجم تبعاً لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياي لما بقي شيء يصدني عن الشر والرزيلة ، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكني مقتنع أنه لو كان أبي حياً لما أمكن أن أحتمله ، ولا اظفت ان أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك - وأنت سيدتي - تدعيني أشعر أنني أنا السيد ولكني أظن السبب أنني أحبك وأجلتك ، وأني مدين لك بكل ما جعلني كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، في بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان معي هذا موجوداً ، بين أبوي على الأرجح - وإن كنت أنا لا أرى دلائله ومظهره ، وبين جدتي وجدتي على التحقيق . وكان جدتي قد قارب المائة ، وجدتي قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كائناً ما كانا لم يكن أحلى من تناجي هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حل الطنولة وسداجتها وطيبها ، وكانا لا يعبآن شيئاً بوجودي ، وهما كما يقول الشريف الرضي :

تساقينا التذكر فاثنتين كأن قد تساقينا الطلاء

وكان الذي يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة ، مما وقع لها وجرباه ، ولكن الحنو ، وعلوية الصوت ، والنوبان ، وحلاوة اللمعة في العين التي انطقاً نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « هل تذكرين يا حاجة .. » فتهز رأسها المصبوغ بالحناء

وينثر ثغرها الأحمر ويومض السرور في عينها ويشرق به وجهها الأحمر -
فقد كانت بيضاء حلوة - وتقول « ايه » ممطوطة طويلة ، ولكنها « آية »
الرضى والحمد لله والاعتباط بجمال الذكرى . لا الأسف والأسى ، فقد
كان حب هذين المهلمين من الدنيا ، لإنهما معافيهما ، وأن غرفه واحدة
تجمعهما ، وأن لما بنين وحندة ، كلهم أحياء وبخير والله المنة ، وكنت
أرى منها ذلك فأدرك أنها مسروران وإن كنت لا أدرك كنة السرور ،
وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غصنهما السن وحنرت فيهما
أخاديد عميقة ، فأرتنى على جدى وأطوقها وأقبلها ، فتصننى وهى تقول
ضاحكة : « إوع تفمصنى يا ولد » ثم تهوى على رأسى أو خدى بفمها
الفارغ وتقبلنى فيكون لقبها صوت كقولك « مق »

وأنا الآن رجل ، ولى زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئة الله
أن يكون لى بنات على ابثارى لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذى
عاش فيه أبى وجدى من قبله ومع ذلك أرانى أستحى أن أقول لزوجتى
أنى أحبها ، وأشعر أنه لا يلبق بى أن أقول ذلك ، ولى كل هؤلاء البنين ،
وأحس أن زمن الكلام فى ذلك قد فات وهو لم يفت فى الحقيقة ، لكننا
جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا - عرفنا ماذا يحق للمرء أن ينتظر ،
سحره ، وزالت فنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس
ومغالطتها وإيهامها .

وباربعاء قلت لنفسى ، حين أخلوبها وتتلفخ خواطرى فى هذا المجرى :
« لماذا أنجل ان اقول لزوجتى انى احبها ، امام هؤلاء الأبناء . . »
واقول فى جواب السؤال ان هؤلاء الأبناء يروننا كبارا ، ولا يتوقعون
منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلهم يظنون بنا اننا كنا فى صدر حياتنا
كل شيء إلا شبابا ، ويهيجنى ذلك ويشير نفسى فأقول ساخطاً معانداً :
« ولكنى لا انوى ان اجعل حياتى وفق ما يظنون ، قاتلنى الله ان فعلت ،

وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان - من الأهل أو الغرباء - فأتعمد أن أثني بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجرى مع العناد ، فأحس كبح الحجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحه ، فيظن السامعون أني أهزل ، وتعرف هي أني أجد .

فلا فرق بيني وبين أبي ، وأن كان بين زميننا كل فرق وما زلنا ، نحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التي تصدنا وتاوى رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق يحرق وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يثنى به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة أني أحبها بالغاً ما بلغ جنوني بها ، فإذا شق على الكبح ونازعني نفسي أن أقول ، قلت ولكن مازحاً ، أو متظاهراً بالمزاح مصنعاً له لأشككها ، ولأنني استحي أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأنني أشعر أني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبداً - أعني عنداً للمرأة لا للكلمة - وأنها حقيقة إذن أن تتخذ مني حصاناً تركضه بين بين العور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت : وأنا في كل يوم أقيد نفسي وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وههنا ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زملي في يدي ، والأمر كله إلى إرادتي ، فإذا شعرت أن يبدأ أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي ، وفقدت اتزاناً وركبت رأسي ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صياني ، وأنني لو وكلت إلى نفسي ورأيت لما فعلت إلا ما يراد مني أن أفعل ولكن طبعي تغلبني فأشقي ، بين دعوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخى . وهم في هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفية عن الوالد ،

ووسيلة لراحته من ثقل الشعور الذى يجيش بصدرة ، فهو شيء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس فى زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويحنبوهم التخييص ، وهذا جميل ولكنى أحس أنهم يبالغون فى الرفق ويسرفون فى اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغي وأخلى من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعى إجهاد الفكر أو ما يستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم بضربون أحياناً - برفق أيضاً - ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها .

جرت هذا بيالى وأنا أكلم شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا فى شيء من الهندسة فوافقتنى على رأى كان يعرف كما تبينت فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً فى مدرسة الهندسة وكان فته ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفنى ، ولم يصحح لى غلطى فلماذا كان هذا لا يضرب حتى يلحق جالده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب مادام يعتقد أنه على حق - فمن غيره الجدير بالضرب . . وكيف تكافح هذه النعومة وذلك التطرى لتجعل من ابنك رجلاً يعرف قدر نفسه ويكرم عقله . . أما أنا فسيلى كسيل أبى ، ولست أستعين « بالزبالين » ولا أنا أقسو قسوته ، ولكنى لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجبنون أو يكذبون أو ييكون الغير « ما ييكى الرجل » وقد جاعنى واحد منهم وقال أن تلميذاً معه فى المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه .. وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه . . فكانت نعم هى جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيماً وقلت له « ألم يكن فى

الشارع حجر تتناوله وتقلعه به فتفتح له قرنه . . قال « بلى ، قلت « لماذا
تجيتنى باكياً وفي وسعك أن تنصف نفسك منه » . وأنذرته أنى لا محالة
قاتله إذا تكرور منه ذاك ، ولم يكن القتل ما أعنى ، وإنما عنيت الضرب
: الأليف ، وقد فهم عنى الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فكفوا عنه
وهابوه ، وقد احتجت بهد ذلك أن أجعل جراته غير راجعة إلى مجرد
الخوف منى .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التى تفضى
إلى التخث .

حليمة وعم محمد

كان خادمنا رجلاً يدعى « عم محمد » لا يعرف أحد من أين جاء - حتى ولا هو يعرف ، وقد سأله من أى بلاد الدنيا هو ، فشوّر يديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسى ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادما الذى نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، فى ظلها ، ولم يكن أحد ينصو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة - جدى وأبى ، من الرجال ، وجدتى من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خلمهم فى ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه فى حدائى ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكنى أنظر إليه الآن - فإنه لا يزال حياً يرزق - وأرى كيف كان يمشى معتدل القامة كالسيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجله ، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى فى هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لا يزال يشرب « البوظة » التى أعرفه - مذ عرفته - كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلى أنه كان دائماً هكذا - بشاربيه الخفيفين ، وأسنانه القوية التى لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة . ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحدائمه الأصفر الباهت الذى يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه

بطرف المعطف العتيق الذى خلعتة عليه منذ خمسة عشر عاما ، وبأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر — كما كانت تسمى — وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السداداب فإن لمن خادمتهن التى لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليلة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هى التى تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شىء فتقف على آخر درجات السلم وتقر على الباب فيجئ إليها ، فحدث ما كان لابد أن يحدث — أحبا وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدى ، وهو جالس على كرسية فى الدهليز وفى يده نبوته وشفته تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد « حليلة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين ، ووعد أن يخاطب أبى فى الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان — تزوجا . وصارت حليلة ، تنتقل فى الليل إلى غرفة « عم محمد » فى البدروم كما يسمى فى مصر ، أو السرداب كما يسمى فى العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونه وبساط قديم مما كان فى البيت . وكانت حليلة هذه قوية جليدة لا تفتر ولا تن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، فى البيت — تكنس وتمسح وتغسل . وتنفض وتشيل وتخط ، وترتب ، وتغزل وتعجن وتخبز وتساعد فى المطبخ ، وتطلع تنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت

إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضي الشيخ وتعد له « الشبوك » والقهوة . .

! وحملت حليلة ، فعظمت بطنها ، فأرادوا أن يترفقوا بها ، وأن يعفوها من عملها الشاق حتى تضع حملها ، ولكنها أبت وظلت تروح وتجي وتثيل وتحط وتقوم وتقع ، وهي سرورة وزاد وجهها إشراقاً ولمعت عينا بنور البشر والجلد .

وكان جدى يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد الباب ، ويصفق عم محمد فتطل عليه حليلة من إحدى النوافذ - فما بقي من هذا بأس بعد انصراف الرجال - فيسألها « عاوزين حاجة . . » فتفسر ثم تخبره ، ويطمئن فيخرج متسللاً ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود وهو يتطرح من السكر ، وكان لا يشرب إلا البوطة وكان جدى ينهأ ويعظه ، وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوى ، حتى يثسا من صلاحه فأهمل أمره وتركاه للأيام ، فلم تزد إلا حباً « للبوطة » .

وقد سأله مرة « ألا يمكن أن يزهدك شيء في هذه البوطة . . » .
فأجابني بسؤال « أهى حرام . . »

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » .
فنظر إلى مستفسراً مستوضحاً فقلت أعنى أنك أصبحت تفتى . من طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لى . إنك تشربها منذ نحو سبعين سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خليق بعدها أن يمل الحياة ، فكيف بالبوطة . .

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه ياسيدى » .
قلت « معذرة . لندع السن . ولكن ألم تسأم » .

قال « لم يبق لى ما أتسلى به سواها . »

قلت « حليمة »

قال « حليمة . الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم »

فأقصرت ، وبودى أن أسأله « ألا يزال يحبها » .

وكانت ليلة أحيائها « عم محمد » بالسهر فى البوطة وهو آمن ، فقد كان جدى نائماً ، وأبى فى بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألنى حليمة راقدة ، ولكن عينيها مفتوحات ، وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغرباً ابتسامتها وكانت عاداتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون فى خدمته حتى ينام فلما طال تحديقها فيها ، تحت الملاءة ورفعت ماتحتها ، على كفها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح ييكى — بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت »

قالت « خروجه كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل فى هذه الحالة .. »

فسألها « كيف .. من كان معك .. »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعى .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخن له الطعام وقدمته إليه ليأكل ، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوى من البوطة فعكف على

طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليجيئها المخاض فتتشدد
وتحتمل آلامه في صمت ، وتضع وحدها وبلا معين . وبعد ساعة أو ساعتين
ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا متهاقطة ولا مسترخية وجلال مخاطره أن حليمة
آية من آيات الله . وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحدثته نفسه : على
ما روى لى أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن
معاقره البوظة ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه في القوطه « يجب أن تستريحى غدا على الأقل،

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. »

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلها وتركها
وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم — وقد جاوزت الستين — أقوى وأقدر على
العمل من عشر فتيات فليس أعجب من « عم محمد » إلا امرأته التى لا تكل
ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة — ابتسامة العطف والرضى والتسامح ،
وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها . ورضاها وتسامحها . وكان حسيب منها في
كل حال أن تنظر إلى بعينها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المفتر فتسكن
نفسى ويشيع في صدرى الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبى ، ولا يسعنى إلا أن
أجيبها بابتسامة . فتهز رأسها على مهل وتربت لى على كتفى وتمضى .

صدق عم محمد فإن حليمة آية

الحادثة الثالثة أن « جليله » بنت حليلة وعم محمد - أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن نبيرون أضرم النار في رومية - عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها في حاشيته المستهرة ، وفي يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعنى أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذى تمثل لخاطري وأنا أقرأ ذلك .. لارومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليله » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتمثال ، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطرى جمرة مضطربة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم - مسمراً هناك - وعينى عليها لا تتحول عنها ، وفي مسمعى من اللهب الخفاق اللمعان مثل اللبدة والتدويم ، وفي أنفي رائحة اللحم المشوى وعلى وجهى صهد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون فى الصيف رطباً فكيف به فى زمهرير الشتاء . . وكانت جليله قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التى تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم - أو السن كما يسمى تراب الفحم - فى الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها منفاخ تعجل به لإيقاد النار وكانت ترتعد وتنفض من البرد ، وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنى به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسي الذى يتلى منه الشريط فى الغاز ولم تر أن

تنزع الزجاجاة وتطفئ الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعتة إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حانية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفساً بالبترول .

وليس هذا خيالاً أتخيله فقد رأيته كله بعيني ، وكنت قد غافلت أُمي وحليمة ، وانحدرت وراء جلييلة ، وفي مأمولى أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلاً ، فقد كنت مشغولاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا تضن على بما تعلم - مما سمعت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلاً إليها ، فرأيته تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألمت أن أقف حيث كنت - على العتبة - فلم يفتني شيء من الفاجعة .

وألقيتها تهوى إلى الأرض ، والنار حولها ، فأفقت وأرتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصيح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك جلييلة فإنها تحترق . وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جلييلة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسلن النار إلى الحصير والسرير وسائر ما في الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجىء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعلم شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لغظهم كثيراً وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخى يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » - « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ؛ ويتوعده بعقاة ، ويقول

ليته كان هو الذى احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليلة - عفى الله عنها « آه والنبي » . وترسل الصوت مجلجلا فى سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التى تعانها لا تتوانى عن ملء العثوث وحملها إلى أخى .

ورآنى أخى كالكلب الذى لا يترك قومه ولا ينفك يجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب تخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرنى وطرمنى وأمرنى أن أصعد .

ولكنى لم أطع - نعم نأيت عن البدرى ، ولكنى بقيت فى فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من فى البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت . . وكيف أكون وحدى فى مأمن من المخاوف التى كظوا لى رأسى بصورها فيما كانوا يقصون على كلما أرادوا تنويمى . . كأنما كان خير ماينم الطفل هو هذه المفزعات .

وجاء أبى : فقد دعى من البيت الصغير ورآنى فى الساحة وحدى ، فأقبل على يسألنى بصوته الهادى المتزن النبرات « أنت هنا » فبكيت . . كأنما فتح لى هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فربت على كتفى ، ومضى عنى إلى البدرى ، فألقي أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لا بد أن تأتى الشرطة ، وأن يجرى التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب بى أبى إلى المكتب ولحق أخى بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطى أخوف ما نخاف نحن الصغار ، بعد العفاريت والأماسخ ، وغير هذه ، وتلك من المرعبات . وكان الذى نعرفه هو أن المسكر عدو للود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم فى المحابس ، وأن « الكركون » - كما كنا نسمى مركز الشرطة - ليس

أكثر ولا أقل من سجن فظيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ،
فشرع أبي يذهب عنى الروح ويطمئن ، ويروضنى على السكون إلى لقاء
هؤلاء الشرطة وغيرهم ، ويفهمنى أنه ليس على أكثر من أن أرى لهم
ما رأيت ، ويؤكد لى أنى سأكون موضع عطفهم ، وأنى سألقى منهم كل
خير ، وأنه لن يصيبنى منهم سوء ، فنسيت وذهلت عن النار التى اشتوت
بها جليلة ، وعن فجيعتى فيها ، ولم أعد أفكر إلا فى هؤلاء الشرطة المخوفين
الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب ..

مضت على هذه الحادثة أربعين عاما . ولكنى لا أرى أثرها يمحى أو
يهت . وليس أبغض إلى ولا أقدر على أفزاعى وأطارة عقلى من النار ،
ويعضى شتاء بعد شتاء ، وتحتاج إلى أضرار النار فى الموقد للتدفئة فيسألنى
أهل البيت فأصبح بهم « يا خبر أسود ! لا لا لا . . حاذروا » وترتفع
قبل عينى جليلة « فى سرادق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون على ويقولون أن البرد قارس ، فأروح اتفلسف وأقول لهم أنهم
بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم فى المقاومة على الثياب والنار ،
وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا فى التوقى ، ولم
يجعلوا معولهم فى التماس الدفء على شىء أجنبى منهم ، وأقول لهم أيضا
أنى أضعف منهم جميعاً ، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية ، ولكنى أحتمل
ما لا يحتملون . فلماذا . . لا سر هناك كل ما فى الأمر أنى لا أكثر من
الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعنى أن استغنى عنها ، ولا أستعين بالنار :
وأذكر لهم أنى كنت فى صدر أيامى ألف رأسى عند النوم فى فوطة كبيرة
وألبس ثياباً من الصوف حتى فى وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول
عمرى مزكوما ، وكان السعال لا يترك لى راحة فى ليل أو نهار ، ثم ضاق
صدرى ، وحزنت على نفسى وقلت ، إذا كان هذا حالى فى شبابه ، فإذا
عسى أن أكون فى الكهولة والشيخوخة . . وكان هذا يسود الدنيا فى عينى
ويغرنى بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، في شعري ونثري، ويشت فتمردت وقلت أنه لن يصيبني شر مما أعان، فخففت، وصرت إذا نمت أخلع ثيابي جميعاً ولا أبقى منها إلا الكفاية للستر. أي الجلالية ليس إلا، وكان الأوان يسمح بذلك، فقد كان الوقت صيفاً. فلما جاءت مقدمة الشتاء، وسعني أن استغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن أتخذها، ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف، ولكن بقية من الحذر القديم جعلتني أحرص على حملة، ولكن على ذراعي، عسى أن احتاج إليه في الليل. وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة، أطل أدافعها وأقاومها، وأرجئ الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه، وأقول لنفسى «نصف ساعة آخر. لن يقتلني نصف ساعة من البرد»، ثم أرجئ الأمر مرة أخرى وهكذا،^{١٣} حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له مادمت لا ألبسه، فصرت أتركه في البيت، وأن لي الآن لمعطفاً، ولكنني قديم.. قديم حتى لقد نسيت من طول عمره متى فصلته، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة، بل ليس حتى للزينة، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به إلى الرفاء، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه فركته، وأمري إلى الله، وأمره إلى الفيران.

أما الشرطة فقد زابني الخوف الصبياني منهم. فما يسع من يشب عن الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضرراً ولا نفعا، وأن الأمر فيهم إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب—أو لا ينبغي أن يكونوها—بل أداة حماية للناس. ولكنني مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس وانقر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت خادمة كانت عندي أشياء—أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن جميعاً—فقلت غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس، وهنئنا لها ما أخذت ولا عذبا الله به، (فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة، وهل ينفعها ما حملت إلا قليلاً. وسينتهي بها الأمر إذا اعتادت ذلك،

إلى الشقاء المحقق . فهي أحق بالعطف . وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب
بما حملت ، لحاولت أن أعالجها وأن أفىء بها إلى الخير ، ولكن الأمر
خرج من يدي بفرارها ، فالله هو القادر على إنقاذها من ذلك المآل
المخيف الذى أتوقعه لها .

ولى بين رجالى البوليس معارف وأخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكنى
لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكنى أحس غضاضة
حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غيرى مثلى
- لاسلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر الذشأة الأولى
على أنى لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور عال(أخرى خفية
راجعة إلى آرائى ومزاجى .

لا أعرف ما سر حبي للحى فى وجوه الناس ، غيرى ، ولكنى أعرف
أتى مارأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخللة إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من
أصابعى مشطا . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبت بها ، فان الناس فى
زماننا يحلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستئناء به عن
الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحداً فى هذا الزمن يغضب إذا أحسنى
الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منقوشة
ذهب بها إلى برلين لبشترك فى تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك .
وقد احتفظ بحبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفئك البلاشفة
وأخطر الفوضويين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب
صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يقرع من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح
وزعيق لا يكونان فى برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألقى
الشيخ واقفاً وسط الدكان والنوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا
بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهور فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خير . »
أنظر .. وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغاية الكثيفة اللقاء قد
ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغاية على خده
الأيسر هائجة كما كانت ، فلم يسهه إلا أن نضحك ، ثم عابله حتى رده
إلى الهلواء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق ..)

قال الشيخ . (أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألنى ماذا أبغى ، ولم أدر
كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بيدي أن سوها - هه - أى بعض
الشيء قليلا جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها) .

وسأل الخلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجز عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا : لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنشتر لحية حقيقية ، أو تناح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك في حدثاتي بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبي لحية جدى . أفتل شعراتها أو أثنيها . وأدسها في أذنه فينتفض ويصيح بي ويتردني فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدى شعرت بأن خسارتي جسيمة ، وأنى فقدت مالا أرى عنه عوضا ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء آخر جدتي ليهزينا ، فأسكناه وكنت أنا أشدهم الحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قصيرا فلحيته تبد أطول مما هي في الحقيقة فتسللت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوساً على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقا والسبحة في يديه ! وإذا به ينتفض قائما يعلن الينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدتي :

« ماهذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة يا حاجة أنى سمعت صوتا كصوت أبى يدعونى »

فزاد تعجبنا وقال أنى « أبوك يا خال .. أبوك يدعوك .. كيف تقول .. أين أنت من أهلك وبينكما ركوب خمس ساعات في القطار ..

فقال « نعم يدعونى . لقد سمعت صوته واضحا جليا ينادى : يا عمر ولا بد لي من السفر فما أشك في أن به حاجة إلى .. »

وأصبر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فامبتدعناه الله وأرسلنا معه « عم

محمد، بالحقيبة إلى المحطة وفي مساء اليوم التالى جاءتنا منه برقية ينعى الينا فيها أباه أى جد أبى .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجد معلوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة— كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر ، إلا من أصحاب العمام ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هذا قويا ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب في حياته قطاراً ولا تراما ولا مركبة . وكان إذا زارنا في القاهرة يجر على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذى فى شق منه ثيابه ، وفى الشق الثانى هدية من القمر أو الحب « الحلوم » أو غير هذا وذاك مما يرى أن يهديه الينا . وكان أبى قد رزق قبلى بولدين . ماتا . فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواى أن أموت أيضاً . وصارا يجزعان كلما أصابنى برد أو غيره . وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أنى ممن قيل فيهم أن « عسر الشقى بقى » واتفق أن جاء هذا الجد للمبروك فاستكتبوه لى حجابا ، فخطط شيئاً فى ورقة ، أو كتب آيات من الكريم : لا أدرى وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها : وقال علقوها له جنبه : فغلفوها فى قماش للتنجيد . أى لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء : ولم يكن حذاء فى الحقيقة : وإنما كان رجلا يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للمحيط : وعلقوه لى فصار كالخجر فيما أحس حين أرقد على جنبى :

ولم يفارقنى هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتى إلى رحمة الله :

حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرجال وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فاذا عرفت ذلك نظرت إلى نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنفر من ذلك نفوراً شديداً . ولكني كنت أقول لنفسي أن جدتي كبيرة السن وأنها فجعت في ابنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تنفج في حفيدها الذي تنعزى به . فماذا على لو أرضيتها وسررتها وتركها تقضى ما بقي من عمرها في راحة واطمئنان . ثم أنى ما أحببت أحداً قط مقدار حبي لها ولأمي فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استعذرت الله وتوكلت عليه وتركها تفرح وتطمئن بالحجبات على جنبي . وكانت إذا رأني مقبلاً عليها لتحياتها كالعادة تبسم لي بقمها الأدرد ، وتمد يدها إلى جنبي لتتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافي » أنه مازال في مكانه . وما أبقيه إلا لأنه يسرني أن أراك راضية قريرة العين « فتمسح لي رأسي وتدعو لي بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أمي تقوم في أول الأمر مقامها في اللاحاح على أن أحفظ به فقلت لها يوماً « ياستي . أنك عاقلة ، فبيني لي لماذا ينبغي أن ألبس هذا الحجاب » .

قالت : « أنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدي وأعظم ببركته . ولكن ما جدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تحجلين أن تقولى أنه يقينى السوء ويحمينى من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد . أليس ماقدر يكون » .

قالت : « آمنت بالله »

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب . ولكنى أحب أن احتفظ به للذكرى فاحفظيه لى عندك » .

فأخذته ، وبقي عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لى أنهم وجدوا حجاباً بين أشياءها . وسألوني ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فانه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الإنسانية ففعلوا ، ولكنى لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أنى لم أقو على النظر اليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابنى فى حياتى وأعمقه أثراً فى نفسى ، ولقد أبيت إلا البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه ، لأن كل ما فيه يذكرنى بها ولكنى كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكنى كنت أراها فى كل مكان ، وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وأن كان غيرى لايعرف ذلك ولا يفطن اليه ، وتلفت اعصابى فكانت هذه الخيالات تسرنى احياناً ، وحياناً أخرى تفزعنى فاضطرب وارتعد ، وثقلت على وطأة الهواجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء الا أن أفارق البيت ، وأتأى بنفعى عن مواطن الذكرى ومثارها على قعر الامكان ، وأقول على الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

بعد وفاة جدى أدخلنى أبى المدرسة القريبة — لقربها من حينا ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التى يجرى فيها الترام « الجديد » والتعرض لخطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة فى تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان — واحدة على شارع القريبة — أى صانعى الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات : ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يحمي بحجر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهلنا الحجر .

ويكفى للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقناً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل » ، لكن أدارجى « — أى أداري . وأنصفه فأقول أنه كان وجلاً طيباً ، وأنه لم يسن قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش — أى خادم — وقد أنعم عليه فى السنة التى دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهى لا تتحول لصاحبها لقب إلبك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه : وقد جمعونا يومئذ صفوفاً فى ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الأنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم

« أفندى مزشوك يشا » وهى عبارة تركية معناها الحرقى « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلاً » .

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبى ، ولهذا كان يسمينى « ابن عبد القادر » ولكنه كان أحنناً فكان ينطق الباء ميماً فيما يخيل إلينا . وكنت على صغرى قد فطنت إلى مواطن الضعف فى نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسعنى أقول له « ياسعادة البك » حتى يهش لى ويهز لى رأسه راضياً ويعفو عن ذنبى أو يجنبى إلى ما أطلب . وكنت دقيق الجسم صغيرة جداً - وما زلت كذلك إلى اليوم - ولكنى كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقى واضطرابى يثقلان على الملايين فيضربوننى أو يشكوننى إلى الناظر فتنجبنى « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا فى السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما - وكان وجهه الضخم فيما يلدو لى - فى حجم صدره : وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالخبر ، ثم نعود بعد حفظها فنسحوها بالأسفنجة ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملايم اشترى بها « ماجورا » أخضرا كان يملؤه ماء لنغمس فيه الأسفنج ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع ستة من الصبيان تتصل بها أدراج بعلوهم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فتصايح ونضوضىء ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل فى مكانها من مقعد الدكة أو لوحها :

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كبيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادى الفراش ويناوله قرشاً فيشترى فولا مدمساً وزيداً ورغيفاً ومخللاً . ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفه محشو . فنضحك : فلا يبالي . فقد كان حلماً رحيماً لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يلدح الناظر مقبلاً من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلغ اللقمة العظيمة ويتكلم في آن معا ، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد - وثباً من النافذة - إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات . » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب - الكرة أو سواها - وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر ليفي قلباً الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا .

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً . ذلك أن أعضائه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على الحجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان لاعباً مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكننا كنا ندعوه « سالي مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البية » فد كنا نراه إلا وهي بين شفطيه ولا أدري ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكنني أدري أنه كان يتكاف رطانة كراتنة الانجليز . وكان له زميل في فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » - أي توفيق - وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يلعبان إلا إذا شربا خمرأ . فأما « سيلي مان »

فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكنى لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أى يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً : ولا نكران أن هذا لا ينفى الولوع بالشراب ، ولكنى لم أر الرجل قط - فقد كان رجلاً لا صديقاً مثلنا خارجاً عن طوره ، لا فى ساحة اللعب ولا فى المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشتري لهم « الخلل » فى سلطانيات صغيرة لتشجذ رغبتهم فى الطعام وكان عليها هذا يستدعى منها التساهل مع بقية اللاميلد ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفى يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد « الطرشجى » هكلنا « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناولها سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يدق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا فى مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

مرض أبى بعد شهور قليلة من دخولى مدرسة القرية الحكومية ،
وصار كل من فى البيت يلفظ بأن زوجته التركية سمته ، أو هى لم تسمه ،
ولنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بما لا
يعرف أحد ، ليحبب أبى فى هذه الزوجة ، ويبغض إليه أمى ، وكان
أبى يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة
ولكن أمى كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي حنيف فعنى أخى
الأكبر بما أشج من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب
بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوماً شيخاً يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر
فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنباً ، وكتب
على لحمه كلاماً وعلقه فى الهواء ، ورمى فى الموقد بخوراً فأطلقه وراح
يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبى على ذلك فأغلق عليه
الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحمل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبى وأراه
ما رأى فشق الأمر على أبى فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدري بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور
كان الطبيب يعود فيه كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيما يبدو لى
صحيحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا
ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود - السمك المسلوق
والأرز والساكهة - وكل ما تغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن
التزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخى كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع
عليها ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم ، فلقيني الكاتب على الباب وسألني
« أين عم محمد » فقلت لم أراه ، فأخبرني أنه ذهب ليحيى بي من المدرسة
لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق :
ودخلت البيت فألقيت في فئائه نقرأ من أقاربنا جلوسا على الكراسي
فسلمت فقال أحدهم « أصعد . أصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن
أراه قاعداً على « الكنبه » فإذا به راقد على مرتبة مفروشة له في وسط
الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدرت عيني في الغرفة ، فألقيت النساء
من أهلى قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعنها
إلى عيونهن ويكفكن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلى بعينه
فانحنيت عليه فقلني ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهممت بأن أدور وأخلع
أثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأبي تتناولني وتميل على
رأسى وهي تقول « أبرك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هنا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما ، فقد رأيت أبي ،
كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظرتة ، ولا ابتسامته ، ولم
يختلف شيء سوى أنه راقد على مرتبة ، بدلا من السرير حتى بعد أن
ولولت النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفتيه
وفي عينيه ، فثبتت طرفي إلى الباكيات النائحات ، ثم عدت أنظر إلى أبي
فراعني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا يريق فيها ولا
ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذي لمحتة لما انحنيت عليه ليقلبنى
قد خبا وانطفأ فبهت ولكن منظرأ جديداً شغلني وصرفني عما وقع في
نفسى من هذا الموت العجيب فقد تشددت جملتي وتحاملت على نفسها ،

وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من حينه فأطبقت عليهما
الجفون ولثمت جبينه ونهضت تشفق وتكاد تخنق :

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباقيات ، فأنحدرت إلى فناء البيت
حيث الرجال وكانوا ييكون ولكن في صمت ، ففي الوسع احتملهم ،
وضمني أخي الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كفي والدموع تنهمر
من عينيه ، وأنا كالصنم وأذكر أنني خجلت ، وحاولت أن أبكي ودعكت
عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجلني وكنت لا أزال غير فاهم
هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا - فوق وتحت - وترك
النساء يطنن والرجال يبكين مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المآتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مآتما ككل
المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخي بعد انقضاء الأيام الثلاثة
صعد إلى حيث كانت أمي جالسة ، وأنبأها أن المآتم كلف خمسمائة جنيه
فدهشت ولم تصدق وقالت أن هذه ثروته ففي أي شيء أنفقها بل بلدها
في يوم واحد ..

فناداني وكذت قريبا منهما أسع وأرى ودفع إلى ورقة فيها أرقام
وقال : هذا ابنتك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة
الأرقام ماذا تبلغ : . فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه !
لا تنقص مليا واحدا .

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد
كان المال الذي تركه كثيرا ولكن أخي بعد ذلك طلق زوجته وسرحهما
وتزوج جارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتا مستقلا
فاحتجنا أن ننقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير

الذى كنا فيه فبدأت متاعينا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخى وبخل علينا
بالمال وصار يقتر علينا ويغلق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ما ترك
أبى فى نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمى هى الوصية علينا فرور أخى
توكيلا منها له وباع الأرض وبعث ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لانعلم
فلما علمت أمى لم تصنع شيئا وقالت أنها لانستفيد شيئا من أن تنزل به
ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام والبن والسكر والسمن فلو جاءنا
ضيف لكاذب فضيحة وكنت واقفا على هتية الباب أنظر إلى صبيان
الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكرههم شيء ولا ينفكرون
في بن أو سكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبى فى الأزهر
مقبل على فقزعت وهمت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يرانى فيمضى فى
سبيله ولكنه لمجنى فنادانى ، وقبلنى وقال « ستك الحاجة كيف حالها »
قلت « بخير ولك الشكر » قال إصعد إليها وقبل لى يدها وقل لها إنى أريد
أن أقابلها .

ولم يكن فى هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدي ،
وكان ربما أقام فى بيتنا - مع أبى - الأسبوع والأسبوعين . وكانت جدتى
تعده كابنها ، ولكنى أشفقت من زيارته ، فافى البيت شيء يقدم لضيف
كريم مثله ، فإذا نقول له . وبأى شيء نعتذر .

ولم أر لى حيلة فأنبأت أمى وجلتى ، ثم انحدرت إليه وصعدت به
فجلس يحدث جدتى وأنا واقف وظهرى إلى الحائط ، وعقلى شارد وإذا
بى أسمعته يقول أنه كان قد سخط من أبى مبلغا آخر ، فثالثا فرابعا
ليشترى بذلك أرضا لنا ، ولكن الأجل وافى أبى . فبقى المبلغ معه ،

ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن يتزل به قضاء الله فيضيع
مالنا ، فهو يريد أن يبرىء ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرح ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا
المبلغ وتيسر الانفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ،
وإنصافاً له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة
من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فما وسع أحدا منا في
حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذي لن ننساه ولا نجهده :

انتقلنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنيا عن
« عم محمد » وامراته « حليمة » .. أو استغنيا هما عنا ، سيان ، فما كنا
خادمين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود
المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم ،
وألغنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا ننعم به في
حياة أبي ، وكل شيء في الدنيا عادة ، حتى النسك والعبادة ، كما يقول
النواصي ، من قصيدة في ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتني النسك

وعودتيه ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق
والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة
جنيهاً في العام أثقل ما نضطر إلى الاحياط له وتدبيره وفي وسع الذارىء
أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهاً في العام . فجاءنا يوماً قريب
لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفني من نفقات التعليم ،
فاستحسننا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعيّن الوجوه التي ينبغي أن نحول
إليها ما كان يأخذه التعليم . وكذب قريبي الطلاب وأرازيه فقرأته على أمي
فسرتها عبارته وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ،
قالت حسبنا التعليم بالمجان مثله :

وغاب قريبتنا أياماً ثم جاءنا نبأ قال « ياستى » .

قالت أمي « نعم . خير إن شاء الله » .

قال « الغاية تبرر الوسطة »

قالت « يعنى » .

قال « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين »

فصاحت به « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً - تعنى ناظر المدرسة -

يطلب رشوة .. »

فقال أمى معترضة « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى

أن نوذى نفقات المدرسة ونستريح ونعفى ضمايرنا من هذا الإثم »

قال « ولكن الإعفاء سينزل طول مدة التعليم »

قالت « ولو »

فانصرف قريبتنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا التخرج الذى لا موجب

له فى رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت

إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجأته ، فأنقذته أربعة جنيات زعم

أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل

قريبتنا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول أنه يتعقبه فى كل مرحلة

من مراحلها ، ثم فأجنا يوماً بالبشرى ، ففرحت جدتى واغتمت أمى ،

واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغى لى أن أفرح كجدتى أم أحزن كأمى .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو جنينان

وجاءنا قريبتنا يقول أنه أخطأ ، وأن الوزارة انما قبلت أن أتعلم « بنصف

مصروفات » فقالت أمى بعد انصرافه « ضيعنا أربعة جنينيات وارتكبنا اثماً

لنقتصد ثلاثة جنينيات » وناولنى جنينها - قيمة نصف القسط الأول -

وقالت : اذهب به إلى المدرسة والأمر لله .

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبى الجنيه — ولكن الله ألهمنى ألا أذهب إلى
كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألنى وهو ينظر إليه
ولى « ما هذا يا بنى » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينيه » .

قلت « إن فلانا قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات
فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بينه وبين أبى صداقة
فرأيت الدمع يترقرق فى عينيه وهو يقول .

— « أنا آسف يا بنى ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، والله ما قصرت
فى السعى لك ولكن هذا ما كان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبى ، ورجعت به وبالحبر ، آخر النهار
إلى أمى .

ودفعنا القسط كاملا :

وسألت أمى قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ
الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردّها عند الميسرة ، وقد ماتت وهى
فى ذمته .

وقلت لى أمى يوما « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من
زيادة الضيق الذى كنا فيه ، أما التعليم فأنى أحد الله الذى مكننى من أداء
نفقاته فى مراحلها كلها ، فما كان يسرنى أن تشعر أنك دون أندادك ،
وإنك رقيق الحال ، وهم فى سعة ، وكنت أخشى أثر هذا فى نفسك فالحمد
لله الذى حرك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الابتدائية فقالت أمي « تذهب إلى المدرسة الخديوية
وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخي وقربي الذي أسلفت ذكره جاء
ليقننا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قربي « ان نفقات التعليم الثانوي كبيرة فن أين تجهين بها » .
وعزز أخي رأيه . وألح الإثنان عليها إلحاحاً شديداً وهي تأبى وتقول
أنها لا ترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف
وكسب الرزق لا يزال بعيداً فاغلظ أخي لها في الكلام وعنف معها قربي
فطردهما وأمضت مشيتها وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمنا غير قصير
لا يجرئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ،
وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بيننا وبينهما ،
وقد فعلت ما تريد وقواها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها
على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضرهما بغضا ، ولكنها تخاف
لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى
أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقي في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي وكادت
تضيغني بل تقتلني . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي ، ولكن
العلاج لم يكن يبدو له أثر ففضيت الصيف كله أوجله راقداً لا أكاد أهي
شيئاً ، من شدة الحمى .

وفي إحدى الليالي ثقلت على وطأة المرض جلدأ ، حتى جزعث أمي
على ما أخبرتني بعد ذلك ، وكادت توقن أني هامة اليوم أو الغد ، لولا
أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون
ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت
وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها الناهية في الهواء إلى النوافذ ، وكنا

نضع قليل الماء على أحد هذه الشاييك لتبرد ، فحدث أن مدت أُمى يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أُمى واضطربت جداً ، وكبر ظنّها أن هذا نذير بموتى ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في فحمة الليل ترى أسلمت القلة أم تحطمت .

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فإ يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من الهشم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة إلا رمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتى .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أولاً أدرى كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذى كان ينبغى أن يكون محققاً .

ولقد حدثتني أُمى بعد ذلك بزمان طويل وهى تروى لى هذه القصة ، أنها بكّت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابثة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفى يدها القلة والدموع تهمو من عينيها دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت منى وأنا نائم ، ولمست وجهى بكنفها ، مترفقه محاذرة ، مخافة أن توقظنى ، فإذا أنا أنصبب هرقاً ، وإذا بشيائى كلها — كما قالت — عصرة .

وأصبحت وقد ذهبت عنى وقدة الحصى وأخذت أتمائل ::

ذكریات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمي إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماضٍ بحاضر . فثلاً يمكن بسهولة أن تصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت أن تلميذاً كان معنا في المدرسة ذال الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية : وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الانجليزية . وارسم { خطأ آخرتم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إداري .

والآن انتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية :

كان التعليم الثانوي انقلا بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة انجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركونا

ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غيري وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها ، فأقول إنى ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يخلفون ففهم اللفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذى حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملئ درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس الالى طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعه واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع فى كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاعه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس فى الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من احدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له . تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها فى الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لأدري لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل تراه أمراً طبيعياً جداً .

واعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس فى نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإني أرانى إلى هذه الساعة أشعر بمحبتهم إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعنى إلا أكبارهم حين التقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزه

أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا : ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لي بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنمت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ » ما هو الاسم العربي لهذا الدخان والتبغ تارة أخرى ؟ . « فقال » : انتظرني ياسيدي حتى أنظر في « الكناشة » وأخرج مما يلي صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مخبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حثحثوا حصا قواده

أو أم خشف بذي شت وطباق

ومضى غنى . وفكرت أنا في كلمة الطباق التي جاءني بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معي أني كنت أؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية وكان هورئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دوري اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألتني ماذا أحفظ . وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي ﷺ فعلمت بذهني وألهمني الله أن أقول إنني أحفظ خطبة للنبي . ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قلى يا شاطر الله يفتح عليك » وسترني الله فلم أخطيء ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والإعراب .

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد أخصائيي بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار ، ولم تكن ندرس نحوأولا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعت ، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل « واعتدى » مثل « اعتديا » للماضي المثني « واعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سبباً » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مخلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل . وأصررت على رأيي وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضواً في اللجنة - تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم ألفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « أي نعم » وذهب للصلاة ونسيت فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين . ويكفى أن أقول أنه كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لانتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعونا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعلنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشرين سنين ، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة ، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة ، وكانت طريقي أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى . والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الحديوية أن دخلت فرقة فالفيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوفة على نحو لاشك أنه متعمد وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتهم أنى أعد نفسى جاهلاً بها حماراً في علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثوني عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جداً فضايف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها

هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسى أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغنى نفسى فإنها تغنى نفوسهم معى أيضا . فحالم ليس خيراً من حالى ، والإحساس المتعب الذى أعانيه ليس قاصراً على ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معى وقد أرادوا أن يفردونى بهذه المحنة : والفوز فى هذه الحالة خليف أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إل مثاها بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله فى سرى أن يقوينى على الاحتمال ، ومضيت فى الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسى عما أعانى من كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى فى وجوههم أمارات الجهد الذى يكابدونه من التجلد مثلى فأسر واغبط وازداد نشاطاً فى الدرس وأغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا فى الكلام فتد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا فى فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها ترهق ، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصروا على عنادى المكتوم ، واغتنمت فرصة اصبع مرفوعة وسألت . صاحبها عما يريد ، فقال . أنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ، قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها : وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورأى ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بى ، وقال لى واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصوداً به

غيرى ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكنى تجاهلت وسألهم عما
يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التى كانت فى الفصل . قلت « رائحة . أى
رائحة . . لانى مزكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم » ومضيت
عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا
رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينقصوا على ، وأن ينجح معي
عبيهم الطبيعي في مثل سنهم .

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت
للأساتذة : إننى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء
مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظرتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه
المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن
تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور
التلميذ بأن المدرس والد له ينبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي
مداركه وينمى استعداداته ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل
يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط
النظام ، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ
بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأنا إخوان كبار لهم
وأصدقاء نافعون .

ولم أكف بهذا بل ألغيت « الحرس » الذى يدق إيقاظنا بابتداء الدرس
أو انتهاءه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور

والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لاداعيهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

كان عزائى فى تلك الأيام قول القائلة :

« راح يبغي نجـوة من هـلاك فهلك
والمنـ ايا رصـد للفتى حيث سـلك
كل شىء قاتل حين تلقى أجـلك »

أى والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفى أهلى من المتاعب التى تجر إليها الثورات واضطراب جبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدى - لأمى - « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خالجنى الشك فى صحة رأيى ، وكادت ثقتى بقومى تذهب ، وكنت فى تلك الأيام أعانى أشد البرح ، فقد كان عملى فى قلب العاصمة ، ويبنى فى الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمى غاديا رانحا كل يوم ، ومعى ما يكفى لغدائى ، فلانى أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه فى فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمشات ، ويحشرون فى كل مكان يخطر على البال ، حتى فى مسجد محمد على بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذى يرتلون إلى فى المدرسة التى كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون على ما جرى ، ويذكرون لى أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بينى وبين تلاميذى علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتموننى شيئا ، ولا يحجبون

عن مصارحتى بما يلزوم في نفوسهم ، وما تضطرب به صلورهم ، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففي الوسع الاستغناء عن الأغذية واحتمال النوم على الأرض ، فبقي الطعام والثياب ، ويطيب لي أن أروى أن بعض التلاميذ كان يرتدى عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تنسج له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذي يعلم أن فيه اخواناً له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أى في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم — وقلما كانوا يصرفونه — فيخلع على زملائه أكثر ما كوم على بدنه ويطعمهم مما حل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ، فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلاً أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم .

وليس من همي أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، وإنما أريد أن أقول أنها زادت عنائي وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات ، وكل شيء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرخد ، وسكننا إلى الأحوال الحديدية الحافلة بالمنغصات والمتعبات ، وانقطع

التبرم والضجر ووطننا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن
تجيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتي ، يسحج إلى أبنان القنابر ، فكنت أسلكها
كل يوم ، وأرى الأحداث المبعثرة في كل صباح ومساء ، وتحت ضوء
القمر ، وفي وقدة الظهر ، وفي الظلمة الخالكة ، وفي البكرة المظلولة
فتنعني هذا وبلد شعوري بالموت ، وهذا استهواله ببعزى منه ، وجعله
فيما أرى وأحس ، أمراً عادياً لا غرابة فيه ولا علة له ، حتى لقد صار
يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشى ، فأقعد على صو
قبر من القبور الكثيرة في طريقي ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن ،
وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر
بمخرج أو استنكار .

وكان بدء التحول في حياتي أن زويتى ماتت ، وإنى لأومن أن
لكل أجل كتاباً ، ولكنى إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعني نفسى
من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً
بعد سنوات : فإلى حيث ألفت ، وما أعرفني شئت بميت سواه ،
ولم يعتمد قتلها ، ولكننا دعوناها — وقد جاءها الخاض — فشملت
رائحة الخمر من فمها ، وفحصها ثم قال لي إن الحالة طبيعية ، ولم يكن
ثم موجب للدعوى ، وسيحصل الوضع في أوانه ، ولكنى لم تثبت فلا داعى
للانظار (كذلك قال والله) وكنت أعوانه ، فظهر الآلات وشرع
في العمل ، وجرد الجنين فاذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه
إخدوداً يسع الخنصر ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتمتص الصناعى
على غير جدوى ، فألحت عليه أن يتركه ويبقى بالأم ، فما ثم شك
في أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم ليخرج « الخلاص » فكان والله

يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدرس يده وأخرج الخلاص مقطعا إربا ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخلفني معه ، فقال لي إن الحالة خطيرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته : « متى تتوقع أن تكون الوفاة . . ؟ إني أسألك عن هذا لأني أؤثر أن أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعى ، فان واجباتي الآن لا تدع لي وقتا للجزع ، فلم يجبني جوابا صريحا ، وقال : سترى ما يكون صباح الغد .

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن التزف يلح عليها ، وأنها تموت شيئا فشيئا ، فبقيت إلى جانبها أقوى نفسها - وأنا يائس - وأشد من عزيمة . وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس ، فأوصتني بولدنا خيرا ، وودعتني ، وجادت بالنفس الأخير ويدى على يدها .

وكاد عقلي يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ ! وكيف أثبت تقصيره أو خطأه أو سكره ؟ ! وشق على الأمر حتى لقد تغير رأيي في الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا لم يجلفني ، ولم يمنع أن طبيبا ثملا قتل امرأتى ، وأين العزاء في أنه غير عامد ، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفغني فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذى عرفته فى ثلاثين سنة على أنى مع ذلك ظلت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدى العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون - وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوماً موروثه من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الحثة أربعين يوماً لتحصيلها - فلم أعد أطيق بيت جدى بعد أن خرجت زوجتى من دنياى فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتى قد جاءتنى به فى جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومى لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق فى ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصرى الذى كان يفاوض لجنة ملتر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ فى « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعى بك فسألنى من نبهت إلى المحكمة لحضور جلساتها . قلت سأحضرها أنا . قال إنه عمل طويل شاق ، فدعة لغريك ، قلت كلا ، وإن نبى الحاجة إلى عمل مضمن يشغلنى عن نفسى ، ويصرفنى عن التفكير فى أمرى . وما أصبت به فى حياتى . فوافق ودعانى بخير ، ولم تدع لى المحكمة العسكرية وقتاً لسواها ؛ وكانت تعقد فى اليوم جلستين ، وظلت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت فى مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتدى على الفراش وأنام كالبيت ، فنفعنى هذا أيضاً وإن كان أسقمنى .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالى ستة آلاف من الجنهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولاً فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتاب يحفظ
فى بيتى أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه
وآخر خلفه ، وفيه القرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفى واطئاً ،
فأيقظنى ذات ليلة صوت جسم وقع فى الفناء الخلفى فتوهمت فى أول
الأمر أن حجراً مزعزعاً أسقطه قط أو نحوه ، ولكنى سمعت بعد
ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فنهضت ، ومضيت إلى الباب
الموصد ، وفتحت شباكاه ونظرت فإذا واحد من أهل الحى ولم يخطر لى
أنه جاء ليسرق ، ففى البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص
قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئاً ، فحييته وإن كان قد أسخطنى عليه
أن يجرى فى هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل »
وحملت ما بدا لى من تردده واضطرابه على حمل الحمل فألححت عليه
فدخل ، ففضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له
قهوة ، فاستغرب سلوكى معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لى بالحقيقة
وسألنى الصفع ، فضحكت ، وقلت له والله إنى بلدير بأن أنجى منك ،
فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينه مبلغ فراغها فزاد
خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لى أن من نقص المروءة
أن أردّه خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجد غير الكتب ، فتناولت طائفة
منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلى ،
فقد ملأت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها انى أعطيته هذه الكتب ،
حتى لا يزعمه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقى فقال لى يوماً ان هذا البيت غير
مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول
بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ،
يؤدى هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جاعني بفقيره أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أردّه ، فكان يبيت كل ليلة عندي على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته . وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم . . . » فاستيقظ أنا أيضاً ! . . فلم أجد لي في هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس ، وما أقربه أيضاً - قرأت قصة هيبسيا لشالز كنجزلى ، وكان صديقى العقاد هو الذى دفع بها إلى وأوصانى ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهنى قصة تاييس لأنا تول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هي التى أوحى إلى الأديب القرنى بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الانجليزية ، وإن كان أنا تول فرانس أبرع فنا وأسحر أسلوبا ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن فى هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون فى زورق أو سفينة - فما أدري الآن - فيروح يتفلسف فى ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهى إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقى هذا الرجل يومئذ وأعجبته فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شيء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقته يدور فى نفسى ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو فى الرواية ، وكنت فى صباى - أى نعم فى صباى - أحببت فتاة كانت جارة لى ، وكانت فى مثل سنى ومن أجلها كففت عن اللعب فى الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلى يزجرونى عن لقاءها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبباني ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يحشون العاقبة ولا يطمثون إلى النهاية . وكنت لا أكم حبي لها ، بل أشعر به وأنا جلد مسرور وأحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وخادمنا فيدعو لى بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين

من أصدقاء أخى الأكبر فيضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كتفى ويقولون « عال عال ما شاء الله ما شاء الله » .

وكنتم أقول لأى حين تنهرنى عن هذا الذى كان فى رأيا هبئاً « ماذا يضير أحداً أن أحبا ؟ »

فتقول « اختشى يا ولد عيب ! »

فأتعجب وأسألها « عيب ؟ أى عيب فى حبي لها ؟ إني لا أصنع شيئاً سوى أنى أحبا . »

فتقول « هذا هو العيب »

فأسألها « ألسن تحبينى ؟ »

فتبتسم وتقول « يا بنى كيف تسأل ؟ »

فأقول « لست أسأل ، فإني أهرف أنك تحبينى ، وأنا أحبك وليس حبك لى عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ »

فتقول « هذا شىء آخر ، أنت إبنى ، وأنا أملك ، ولكن هذه . . . هذه ليست منا » .

فأسألها « إن أبى لم يكن منك . ولكن تحبينه ، ومازلت تلبسين السواد حداداً عليه منذ سنوات »

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم »

فأقول « صحيح أنى صغير ، وأنى لا أفهم ، ولكنى أحس يا أمى . . ألا يكفى أن أحس ؟ وصدقينى ولا تغضبى أو تستائى حين أقول أنه أشهى لى أن أكون جالساً إليها الآن وإن قلبى يرف صبوة إليها »

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع أيدها على كتفي وتقول « وبعد ؟
ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ »

فأقول « لست أعرف ماذا تسنين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح
بذلك .

فتسأل « ولكن النتيجة ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ »

فأقول « لا شيء . . أحبها ، وهذا هو الأول والآخر . . ثم لماذا
يكون له آخر ؟ »

فتقول « انك طفل .. وهذا غير معقول »

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام . كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا
إلى بيت آخر وبعدت الشتات جداً ولم يكن هذا ليمعني أن أقطع المدينة من
أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابرت على حبها
أعواماً طويلاً ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والأنس ،
وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث
قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحنت المدينة ، وهلمت الحى الذى
كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت مئذنته الجديدة ، وشقت طرقاً ، ووسعت
مياذنه ، وغرست أشجاراً ، ومدت تنهباناً ، وأجرت تراما . ولذ بي في
يوم من الأيام أزور هذا الحى وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف
كان ، حتى اهتدى إلى الرقعة التى كان بيتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير
العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تهت ولن تهت صورة الفتاة ، وإنى لأراها الآن ، كما كنت
أراها في ذلك العصر الحالى ، واقفة إلى جانبي وأماناً على النافذة طبق فيه
« لب » تقشره لي ، وتعطينه ، لأنى لا أحسن قشره ، أو جالسة على

حشية تسرح شعرها الدجرجى ، وترجله وتضفره ، فأميل على رأسها ،
وأدنى أنفى من شعرها الريحى ، وأشمه . وإنى ليخيل إلى أنى أجدر طيبه
الآن أنفى ! وما أقول « يميل إلى » إلا انقاء لإنكار القارىء فإن شعورى
بذلك أصدق ما يمكن أن يكون ثمر إنسان بشيء . وما زلت أراها ،
تجربى فى الحارة وراء ديباجة لما شاردة ، وأنا أدعوها أن تترث وتقف
هناك ، وتخطو مرققة ، على حين أقف أنا فى ناحية أخرى لنعصر الدجاجة
بيننا ، ونزحف ونفسيق على الديباجة المارقة ، وهى تصيح وتضرب
بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتعنى الفتاة عليها بنته لتمسكها ، فتأخذ
عنى ثديها الناهدين الراسخين وقد تثلا بالثوب وأحس هزتها تحته ؛
فيدور رأسى وأذهل عن الدجاجة ولا أعرد أدرى أفلتت أم وقعت ،
فتصيح بى وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدنى ؟ » فأفبق
وكأنى عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالدجاجة حتى نمسكها .

وصورتها وهى على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة
وتنبها بالمشابك ، وقد كسنت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق ،
فبدت البشرة السمراء مضطربة من أثر الغسل ، وجهه الدعك وفعل
الصابون .

وصورتها وهى واقفة ببناء البيت تودعنى ، وباب السكة موارب ،
وقد ضمتها إلى صدرى وطوقتها بذراعى ، وعكفت على فخها بالقبل
الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهري إليه ، فررجل من أصدقاء
أخى ، نعرفه ثرثرة تماما ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقى ، وأحسها
ضجرت ، وأتوهمها فترت ، فأكتب ، فتصيح « لا لا . هذا الرجل »
وتقص على الخبر وتعيد لى بشاشتى وترد إلى روحى الإشراق .

وصورتها وهى راقدة ورأسها على وركى ، ويدى على شعرها أمسحه

وأتخلله بأصابعي ، وألمس خدنها الأسيل ، وأداعب شفها الرقيقة بأصبعي ،
فتغافلني وتعضة .

كلا ، لن تهت هذه الصور أبدا ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها
السن ، أو يزداد عمرها عندي يوما ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .

ولكنني نسيت اسمها ، فكأنني ما عرفته قط ولا سمعت به .

تري ماذا كان ؟ وكيف كان في السمع ؟ وفي وسعي أن أسميها شيئا
وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندي أحلى هكذا
بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يزيد لها أن يكون لها اسم وماذا أصنع به
وليس ينقص الصورة شيء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا .

بعد أن كتبت الفصل السابق شق على أنى نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التى أحبتها وأنا مبهى ، ولا يزال لحبها - أو لذكراه - نوبة فى الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقفيت أياها أحاول أن أنذكر . ستى وأنا أعمل أو أتكلم ، أرى خوارطرى تنفخ إلى هذا الذى تنلت دنى وغاب عنى ، وكان يخيـسل إلى أحياناً أن السجف المسبل ينمحي قليلا ، قليلا ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجما يوشك ومنه الخفاق أن يطالعنى ، فأبتسم ، وأطعم ، وأتشرّف ، ولكن ما كاد يرق يعود فيتكاثف ويتراسب ، فارتد بالحية والأمدف ، وأتغزى بقولى من يدرى ؟ إن للذاكرة معابثها ، وقد يتفق لى يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون فى مجلس شراب أو فى السينما ، أو أدون ناهضاً من رقاد ، فيعصر الغائب ويظهر المحجوب أو المتوارى ، ويطفو الراسب ، ومن يدرى أيضاً ؟ لعل حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعنى أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذى كنت أعرفها به ؟ كلا ، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور فى نفسى من الأسماء لا أبجد له فى جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هى قد نسيت اسمى ، بل نسيتهى جملة ، فما كنا إلا طفلين نلعت بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لى وضنت به على العفاء كما غالت وضنت ، وأكبر الظن أن شئون

الحياة وشجعونها وأفراحها وأتراحها أذهبتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة ، وله من سحر . وأنه ليس غلر لي أسياناً ، وأنا أرى بني أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بني منها ، ولو رأيت أبنائها — أترى صار لها بنون ؟ — لما وسعني أن أتصور أنهم بنو دوني ، أو على الأقل أن خاطري المائل في نفسها لم يطبعهم بشيء سيئ ، ولكن أني لي أن أعرف — بل أكون واثقاً — أن خاطري يتمثل ، أو كان يتمثل ، لها ؟ ويشق على أن أتصور أنها تنسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبي ، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفي بيتها ، وفي حجرة مظلمة رطبة مزججورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخي الأكبر — رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة — قد أراد أن يبرني ويسرني فدعاني إلى مرافقته في يوم « شم النسيم » فذهب بي ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسي الثرثار الذي أشرت إليه في الفصل السابق — والذي رأيته أعانق فتاتي فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمي واغتمت له جداً — إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسي والسرلات على هيئة المظامير ، فجعل أخي وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينة ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، واديرب عليها الراح التي تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينة إلى بعينها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسست ولم أرد ، فقال أخي وكان من أطرف الناس إذا شرب — « خذ... إن هذا لا يضر » فهززت رأسي أن لا ، فقال علي وهمس في أذني « لا تخف لشرب وأنت آمن » فهززت رأسي مرة أخرى ، فعاد يهمس في أذني « اشرب بالله ، وسأقول لخالتك » يعني أمي ولم تكن خالته ولا أمه « أني اسقيتك سوبية » وهي شراب يصنع من الأرز فقبلت وأقبلت على الكوب الكبير اكرع منه كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدي بالشراب ، فدار رأسي قليلاً ،

وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني وراح
هذا الشركسي الثرثار يغمز أخى فيسألني هذا عن فتاتي ، فأقول بجبي
فيضحكون ويقرقون ، وتكون المرأة السمينة الجميلة أعلاهم ضحكا وأشدهم
قرقعة «هوت» ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري ، لما نظمت بعد
سنوات طويلات المدد — قصيدة ملاحها .

حشا شرابهما في نال حسان رياه ريمانا في مجلس الحان
ريا الحبيب . ولا شيء كنفحته وهنا يهيج ألدراي وأشجاني
حشا شرابهما حتي رأيتها لا يسمان : وإن كانا يتولان
هما أثران علاني على ظناً وبالشراب على سري يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينة الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب
الأول ألت ، على ، ففضي القلم يرسمها في التي بطرني منها ما نثره من
الذكرى .

« لا أحتاج أن أقول أني سكرت ، وقد دخلت على أمي ، وشممت
من فمي رائحة الليل ، ففضبت ، غضباً شديداً » دعت جدتي « لأبي » وقالت
انظري ما صنع خيرى بأخيه ؟ فنادت جدتي أخى ، فأقبل عابها يتسم لها ،
فتمسحت به « يا قليل الحياء مزبلج .. خذ » وخلعت القبقاب ، وأهوت به
على أخى وهو يضحك فيلاذنني ويعتذر ويسألها الصفيح ، ويحاول أن
يطمئنها على ، وكنت أنا قد تسالت إلى غرفتي ، وارتميت على السرير ،
ولم أكّد أفعل حتى ألتيت ما في جرفي على البساط ، فخرجت .

ولم أعد أطبق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي ، فصعدت إلى السطح
وانحدرت منه — على السلم المعهود — إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ،
وأهبت بها أن تؤويني ، وتخفني عن العيون — حتى عيون أمها وأختها —
فيحاربت كيفي أصنع ، ورأيت أنا باب الحجارة المهجورة فدفعته ودخلت

وقلت هنا أختبئ ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرت الفتاة كرسيها فعدت عليه حتى تندبر الأمر ، ثم جاءني بمصير وعدة فارتيمت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هيات لي طعاماً — بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً — فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

في هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأني في سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة توتسني بوجودها ، وتجيني بأخبار البحث عني ، وقد ضحكنا بجداً لما روت لي أنهم أطلقوا منادياً يتبرج في الشوارع « ياإلى شاف ولد تايه عمره ائناشر سنة لابس جلابية بيضة وراسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ »

وكان ضحكنا لأنني لست طفلاً حتى يظنوا أني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أبي وبجدي ، وبكاهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بخبر مطمئن ، ولكن الوقت كان يمضي ولا أفعل ، وكان التردد في هذا والخيرة شر ما أعاني ، ولكنني كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي ، وصدق سريرتها في كتمان سري ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناى النظر فيه فكان حسبي أن أرى محيا الفتاة .

ولكن الحب ، بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء صدره بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا الحبس على ما كان فيه من الأنس ، ولم تنكر الفتاة مني ما كان يبدو من تمللي وضجري واشتغائي الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح ، فما كان من أمي إلا أن اثترت وخفت إلى ، وصنمتني إلى أحلى صدرى وأرق قلب كأتما كنت قد غرقت أو خطفت . .

كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق
الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عمجوزاً شمطاء !
فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدى ؟؟ لا !

ولانى لأذكر أنى كنت يوماً أتمشى مع صديقى الأستاذ العقاد ، فرأيت
رجلاً قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الظهر ، مغضن الوجه ، فقلت
لصديقى : أنظر . . هذا هو المازنى فى السبعين من العمر ! تالله ما أقبح
ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهلم والدمامة ! لياسيدى ، خير من
هذا المصير عمر قصير مع الهمة والقدرة .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة فى حاضرها ، وأن أفسد على نفسى صورة
صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهبها ماتت ، فما ماتت عندى ، ولانى
ليموت منى كل شيء ، ولكنها هى عندى ومعى حية لا تموت ولا تهرم
ما بقيت .

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضاً عن الناس ، وفقوراً
عن لقائهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك
أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحدث ، وكان يسرني أن أسمع
صوتي - لا شادياً بل متحدثاً - وكانت لذة الحديث لاتعادلها عندي
لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا
ولوع به أو طلب له ، من برىء وكانت الوحدة تتلف أعصابي ،
وتعصف باتزاني ، وتكلفني شططا ، ثم ألفتني - من حيث أشعر ،
ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسى المخرج من محيطها ،
وأنتسل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أتلفت فلا أجد حولي أحداً ،
وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبى من التيب والنجل
مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسى مرة « ياهذا ، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق
مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن
ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب فلا يتفق
أن تلقى وجهها تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير
فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام
أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه
أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشى في هذا الشارع ، ولعل
كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك
فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك - ورفات مغلفة أو مجلدة

ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم ، ومن يدري ، لعلهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما تحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لي أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأنني وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلويحها وانطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحياء كثيرة وهذه الصورة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن قراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهي فيما بينه وبين نفسه به . وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جسيماً له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثرة « أو قولهم » أنت المازني أم اختراله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أتبي في اذهان الناس كما يشاءون ان يتخيلوني ، وان اظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو — أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي — ؟؟؟ »

وقلت لنفسى أيضاً « إنك لم تعيش إلى الآن » كما تحب وتوثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشبهها مادامت تخوض العباب مع الخائفين وتضرب في اللجة مع الضاربين ، لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ، وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال .

فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذى هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك .

وقلت لنفسى أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تتحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفترتك ، ذلك أنك تكون كالذى يشرب عصارة ولا يمص ، فهل من الحسارة تعفى نفسك أن تعب التقشير والمص ، ومنظر النفاية التى لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التى هى الخير كله ؟ ؟ »

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء ، ولكنى لن أحرم لذة الجهد ، حين استغنى بالكتب عن الناس . وقد صرت آكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدنى لا ما هو أعذب فى فمى أو ما أنا إليه أميل وأنى لأرد نفسى عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجيء فى أعقابها مالا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لى الآن مطلباً عند الناس ، فقد بعد ما بينى وبينهم جداً ، ولانى لأرانى مع الواحد منهم فأحس أنه فى كوكب آخر وعالم غير عالمى . ليس همى همهم ، ولا أنا منهم ولا هم منى فى قليل أو كثير ، ومنى ذهب الشعور بالمشاركة فإذا يبقى ؟؟ ولست أعنى أنى خير منهم أو أفضل ، ولكنى أعنى أنى أرانى مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا أفضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسى أيضاً « لقد ثار بى صديق مرة لآنى سأله ألا تشهى أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟؟ وحسب أنى أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ وأعترف أنى أسأت العبارة عما أريد ولكنى إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فإذا

يمنع منها ؟؟ ولماذا نحيت أنفسنا بأسلاك شائكة لضرورة لها ولا منفعة منها ؟ .
وهي تمرغت على التراب ، وتقلبت على الأرض ، كما يفعل الحمار ،
فأين البأس هنا ؟؟ إذا كان ثم بأس فهو على لا على أحد غيري ، وثيابي
هي التي ستسوخ ، ووجهي هو الذي سيتعفر ، وإذا كانت نفسي تنازعني
أن أفعل ذلك ، فإنني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذي ترتاح
أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبي غضب ، وإن كنت لم
أقصر في الشرح والبيان ، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقبح الاختيار
للمثل . ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكرى في مجلسه ، ولا ينفك
يقول إنني وقح قليل الأدب ، ولا شك أنني كما يقول مادام الأدب هو
ما يعرف . وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف - إذ أمكن أن
يحمل نفسه على قاءة شيء لي - أنني أخرج في بعض الأحيان ، إلى
الصحراء وأتمرغ بالحمار على رمالها ، وأعوى كالكلب وأموء كالقط ،
وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع ، ثم انهض وانهض عن ثيابي
الغبار ، وأمسح وجهي ويدي ، وأعود إنسانا محتشما ذا سم ووقار ،
ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسي وأشعرتها أنني حرولي في هذا
الذي لا قيمة له عند الأكثرين ، وأن في وسعي أن أفعل ما أشاء ، وأكون
على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي ،
ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحده وأن تنعم
بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما
عسى أن تفعل وأنت وحده . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولا عين
عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرعون
أن يفعلوا ما تحدثهم به نفوسهم .

وقلت لنفسى أيضاً : لا أدري لم هذا الموت ؟ وإني لأشهى أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودى لو يمتد بي الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادى . وأحسب أن الموت هو مصدر مانعه فضائل فى الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبت عن المتنبي فى « حصاد المشيم » فلا أعود إليه ، ولكنى أحسبه أيضاً علة ما ألقنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط لسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بما فى الطباع . وإنا لفي زمن يعد فيه الخير فى مكان شراً فى مكان غيره ، والفضيلة هنا مردولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبيل الفتى لأمه التى نجلته ، قلة حياة ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعى من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعى من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلائمان على قارعة الطريق وفى المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاغتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لحي لا يلبث أن يصبح « هالكا وابن هالك ، وذا نسب فى الهالكين عريق » ؟

وطال تفكيرى فى هذا الموت ، ونحامرنى خاطره ، فهو لا يفارقنى فى يقظة أو منام ، وإني لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما ترمى لى من الصور والحوادث فى رقادى ، وما غمضت عيني ليلة إلا

وأعبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغايباً أو مغالطاً « أترى كل ما في الموت من هذا النقدان للشعور بالذات ؟ » ولا يفتني هذا فأرتد أقول « وكيف يبد حياة من لا يعرف أنه حي ولا يخس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جدرى استمرار حياة لا يخسها الحي ولا يظن إليها ولا يدركها أنه موجود » أطبق الجفن على الجفن وأنا أحدث نفسي أن مالا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلا أنصر عن تدبره ، ولكن على وابتيا هو ادخار القوة والدفاع بها إلى آخر رفق . ولكن قاي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أنني إذا نمت ، قد تخاس مني الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعاً ولا أتوم بكفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تغلق العنلم ، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج ، بل يزلزل ، فاحتال لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود ، فيما سرت ، يعينني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منلمة وإن كنت أسمعها عالية ، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستهلها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فقلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يحمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم في الموت ، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء تنحصر في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالى بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للطعام وأحسن من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن

كل لقمة أتناولها بصحبها إنذار « حاذر من الكظة » فانهض عن اللائلة
وما شبت وتقول زوجتى وهى تقوم معى « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول
متشلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ؛ وإذا أكلنا لا نشبع » وأتقى أن
أعديها بما ينقص عيشى .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا ، وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكنى أنظر إلى هذه التى هى منى النفس ، وروح الحياة وربحائها
فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لى ملفوفاً عليها
كفن وقد شاعت الصفرة فى محياها المتوهج ، وآضت عينها التى تنفث
السحر كقطع من زجاج ، وشاع فيها البلى علوا وسنلا ، وصارت غصارتها
ونضارتها صديداً سائلا تسد من تنه الأنوف .

وأرد نفسى إلى عيني وأترفق بها وأنا أتصور مآلها ، فأراها شجرة
يلوى نورها ، وتذهب زهرتها ويحف ورقها ويسقط عنها ، فتعري ، ثم
يجيء الخطاب ويهوى على أصلها بالفأس . . . وكانت هنا شجرة ثم
غابت . . . هذا كل شئ .

ويحضرنى بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبل غرد

كان يغنى على الغصون لنا ؟

فأديره فى نفسى وأدهوره فى شدى ، بلا صرت ، وأظل مع ذلك
اتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازهم وأجد معهم وهم لا يدرون أى قبر
مظلم ، وأنى أستر نفسى وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف ، أى نعم

لما أعرفني ضحككت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق ..
ولكن ما لهم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود
الدنيا في عيونهم ؟ ؟

ويلقاني الشبان ، ويسألونني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم
أنى أحكم منهم وأعلم . وإنى لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم
أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كريبه ، وإن كان
هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب
والقبح الذين في نفسك ، ولا ندع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك
وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصلمهم به الحياة عاجلاً أو آجلاً بل
آجلاً كما أرجو لهم وأحب وإنى لأتمنى لهم السلامة والنجاة ، ودوام الاغترار
بالحياة ، وإن قلبي ليعصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحو عيونهم على
حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة
للحياة الزاهية واضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا
شططاً ، فليس أقسى من ثنى الأعصاب وأكراهها على بحالة غير حالتها
ويخيل إلى وأنا أبذل لهذا الجهد من نفسي أنى أوقدت ناراً تحت أعصابي
لتحىي ، وأنى أدقها بمطرقة لتلين وتنخذ الصورة التي أريدها ويؤمنني
أنى لا أجدها أمرها به . بعد ذلك لتخمد الخدوة وتبرد ، ويذهب
عنها الحر .

وأسال نفسي : أترأى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية
كرة أخرى ؟ ولا أكذب نفسي فأقول (لا) وأحس أنى في حيرة ،
فلا أستطيع أن أقول (نعم) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟
وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ، فهل
يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ،
فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها
من جديد ، إلا ضرباً من الموت ، فكأنى سأموت ميتتين بدلاً من واحدة .

وأحيانا هذا الخاطر بالتهكم والسخرية . أركب بهمساً نفسي
والناس والحياة وكل ما فيها ، وتسترقي الناطقة الفنية فترة ، فأذهل ،
وأهناً ، لأن بالي خلا من التنقيص ، ولأن عاطفتي الننية جعلتني فيما أحس
أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعتني من اللبنة ، ووقفت بي على
الشاطئ وأتاحت لي أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا
معزل عنها فكأنني مخلق فوقها ، غير خاضع لها . . ومن يدري ؟ لعلني
أدخل السرور على نفس أخرى مظلمة كنفسى ، بما أعالج من فكاكة
الحياة ؟ . ولبث قليلاً أن أستطيع ذلك وإنه ليس علمنى أن أروهم أنى أستطعت
إسعاد غيرى ولو دقائق معدودات وقد أكون وإهما ولكنه وهم جميل ، بل
جليل ، وأنه الذى يغرنى بتلمس الجوانب النكاهية فى الحياة ، ولا أنكر
أن هذا يسرى على نفسى أيضاً ، ولكن ما ينفعنى ويشغبنى ساعة لا يخلو
من نفع لغيرى . وما أظن بي إلا أنى أصببت ، كذلك الذى شغاه دواء
لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكين المتوجعين لوجه
الله وشكراً لله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الخمسين ، فأنت الآن
فى المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ،
ويصرفك ما فى الصعود من مشقات وما يتماضاك من جهد ، وما تأخذه
عينك من صور ومناظر - عن التفكير فى الذروة وما بعدها ، فالآن
أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبت باطل ليس
يجدى أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتيسر لك أن تقف
هنا قليلاً ، وتلتبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف ،
لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهى
أبدأ - أو فى الأغلب الأعم - إلى تحت . . إلى المصير المحتوم . . وهو
محتوم . . محتوم ، ما فى هذا أدنى شك فما قولك فى رياضة النفس
عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت . . على الاطمئنان إليه . . على

السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينبغي حرصك
على الحياة وضمنك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي
يذهب إلى مدرسة ليبيء نفسه لغده المأمول ، فهنا غدك الذي لا ريب
فيه ، فن أصالة الرأي أن تنهأ له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق
أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها . . .

وراقني هذا ، فصبح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل ترانى أمير فيها كما سرت ؟ »

وخطر لى ، وأنا أدبر هذا السؤال فى نفسى أن الأولى أن أسأل : هل يسرنى أو أنا أشهى ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعى أنى كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكنى أقول . إنى ترددت وصحيح أنها كرة - لو أتيت - يكبر بها الأهل فى طول البقاء فى هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المول فى الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أنى تجاوزت الخمسين ، فإنى - كما قلت قديماً أيام كنت مغرى بالنظم -

أحس كأن الدهر عمرى ، وأننى أخو مغرق الأرضين بالفيضان
ويضحكنى الآن أنى قلت هذا ، فما أعرف أخى المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعنى نوحاً ، ولكن نوحاً لم يفرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذى لا دقة فيه ولا إحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تعدو أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت فى هذا البيت شبيهاً بالعامة أو الأطفال

حين يقيسون ما لاحد له إلى ماله حدود قرية . وللعامّة عذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسلوذة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذي يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومي في بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير الفؤاد يلهم الدنيا وتحويه دفئا حيزوم

والذي يزعم نفسه قادراً على أن يطوى العالم كله في ضميره ، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامي النفس

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديواني بعد أن أضيف إليه مالم ينشر ، فقلت له إني لا أرضي الآن عما قلت من الشعر في صدر حياتي - وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح في رأيي صالحاً للنشر ، ولا صبر لي على هذا ، ولا وقت له عندي ، ومن الخطأ أن أنشر مالا أستجيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضروري أن يكون رأي الناس مثله ، وأن مالا يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعري ، ونشرى له معناه رضاي عنه وارتياحي إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لم خذوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبى ، ثم إن رأيي أنا في كلامي هو الذي يعينني ، وما قلته إلا للعبارة عما في نفسي . .

فإذا كنت أراي لم أجد العبارة ولم أوفق في التصوير ، وأنى تشابه الأمر على ، لجهلى ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبني الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسى وخوارجي ، فكيف أستطيع أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت مافيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتي - كرة أخرى - من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإنى لأغوص في أعماق نفسي الآن ، فأجد أنى في شبابي لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأنى لم أجعل بالى في عهده إلى الخلاوة التى أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطرى ، ونشر المطوى من زمانه . وأحسب أن الذى يكسب ذكرى الشباب هذه الخلاوة ويرقق القلب له ويعطفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقى منه وينتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب !! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعروضاً على نفس تحس ديب الفناء ، وتشعر بأنها مولية عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة في استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش في الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيها والمعرفة فضلها ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ، ولكن الذى في الماء لا يستطيع أن ينعم بمراى البحر ومناظر السابحين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ ، والماضى أوقع في النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالسباح في الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون في اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضى - إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع الاستفادة من رجع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ،
فأنا حين أكون على حال ما . لا أعجز عن انتزاع نفسي منه . والوقوف
بعزل عنه بحيث يتسنى لى أن أراقب ما يجرى - كأنه يقع لسواى - وأن
أدير فيه خاطرى فأكون فى الحاضر وكأنه مضى وذلفر بالمتعة المحسوسة والمتعة
المتخيلة وضرب مثلاً فأقول هبنى أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك
أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة ، ولكنى أزيد على ذلك أنى أستطيع أن أسبق
هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأنصوّر نفسي بجالساً أتذكر حلاوة القبلة التى
فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصورى هذا فى أثناء التقبيل . فهما قبلتان -
واحدة أحسها بقمى ويرف لها قلبى وأخرى يجسدها لى خيالى كما ستكون
بذكرها بعد انقضاء عام أو عامين وهكلنا فى غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

سألتى « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك مللت الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغمار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

ولست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذى كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفتى التى تكاد تذهب بلى فلانى أنسى كل شيء إلا أنى أكلت ، وما أذكر الشيع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه - وأعنى النسيان ، لا الشيع - هو الذى حماني أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يسمى عاشقاً ويصبح سالياً ؟

أى والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو ! ولكنى أنسى أنى صبوت . وتطير من رأسى الأسماء والأحاديث ، كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لى أن خرجت يوماً بالسيارة وحدى إلى آخر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشي في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالى إلى الفرق بين وقع قلعي - قدم رجلى السليمة ، وقسدم رجلى المهيمضة - وإلى مسافة الزمن التى يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى :

وكان الداعى إلى هذا أنه خطر لى أنى مخطيء فى اجتناب الرقص ،
وأنه عسى أن تسعفى ساقى المهيضة ولا تعباً بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة
فلا يبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطين النفس عليه ،
وأنا أحب الرقص ، ولكنى لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى
أن تخذلنى ساقى ، فأتلكأ وأبطىء ، أو درس قدم التى أراقصها وأدور
بها ، وأحجل أن أجرب قبل أن اتبين واستوثق ، وإنى لهكذا وإذا بي
أصدم بفتاة داخلية من بعض أبواب الحديقة ، فاتفقت الوقوع بإسناد كفى
إلى كنفها ، واتفقت هى براحتها على صدرى وأفقتنا فشرعت اعتذر ،
فقاطعتنى وقالت « أهو أنت ؟ »

فابتسمت وقلت « ليس عندى أدنى شك فى انى أنا ، فهل يكفىك
هذا الجواب ؟ إنه على كل حال من نوع السؤال »

قالت « إنما أعنى أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ »
فتأملتها ، وأطلت التحديق فى وجهها الصابح ، ولكن رأسى لم يخرج
فيه شىء . فهزرت رأسى وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك
تاريخ حياتى من البداية ؟ »
قالت « ألا تذكر ؟ »

قلت « هذه هى المسألة — كما يقول هملت ، فهل سمعت به ؟ »
قالت « كيف تنسى ؟ كيف يمكن أن تنسى ؟ »

قلت « اسمعى » وجريتها من ذراعها إلى مقعد . هذا موضوع يحتاج
إلى تقص طويل ، فقولى لى : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالا ،
أو استعرت شيئاً ؟ »

فضحككت وقالت « لا مال لى أقرض منه ، وليس عندى ما يستحق

أن يعار »

قلت « هذا حسن . فلاني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس :
سؤال آخر . . »

فقاطعتني وقالت « لاتسأل . . سأذكرك بكل شيء »

قلت « خيراً إن شاء الله ، هاني ما عندك »

قالت « أتذكر السويس ؟ »

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل ، ومشى أجمل ، فهل تلاقينا
هناك على ساحل البحر ، أو في الكازينو ، أو على الباخرة التي ركبنا
إلى الحجاز أو . . . »

قالت — وهي تضحك — انتظر لا ، لم نتقابل في السويس ، بل في
طريق السويس ، عند الكيلو الخمسين ، وكنا عائدتين إلى مصر : . . »

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ »

قالت « ألا تنتظر ؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر
غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجده ، وكاد يدخل الليل ، وكدنا نياس ،
فقد كانت السيارات التي تمر بنا ، لا تقف ، وهي صغيرة لا تتسع لنا ،
ولا تقوى على جرتنا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك
فوقفت ، وسألتنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن تحملنا جميعاً في
سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا
عليك أن نربط السيارتين فتجرتنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي
« مستغرب سيارتي ، وسينهكها هذا العبء ، ولكني حسبي عوضاً أن ست
عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشرافي . . »

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبنا أسماءنا كلها في رقعة ، ولقيتكم
أنا وأخي بعد ذلك مرتين ، دعوتنا في أولاهما إلى السبنا ، وفي المرة

الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين ، وقد أخبرتك في ذلك اليوم
أنى مسافرة إلى الإسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنوانى فوعدت
أن تزورنى ، وأن تكتب إلى ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا
ولا ذاك .

قلت « الحمد لله »

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت « اسمعى . إن رأسى هذا غربال واسع الخروق ، كما يعرف كل
من يعرفنى ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين على الحكاية ، أن أكون
قد قلت أو فعلت شيئاً .. الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر
على هذا القدر . »

« قالت ، ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتني أيضاً .. »

فقاطعتها قائلاً « هل تريد أن تضحكى على ذفى ؟ لأنك عرفت أنى
سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. »

« قالت « ولماذا اخترع ؟ »

فتناولت ذراعها وسألها « سأوجه إليك سؤالاً قد يبدو لك محرجاً
أو ثقيلاً ولكن عذرى هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .

« قالت « نعم .. قلت : « إن عيني زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله » .

« قلت « هلما صحيح » ففرحت وصاحت « هل تذكرت ؟ » قلت « كلا ،
إنما أعنى أن عينيك هكذا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل
حال — وهل .. هل .. ؟ »

« قالت « نعم »

« قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

« قالت : مبتظرة سؤالك »

فتشهدت وسألتها « هل بستك؟؟ معذرة ! »
قالت « أوه... هذا... نعم ثلاث مرات... مرة في الطريق
وأنا معك في السيارة ومرة... »
قلت « كفى... كفى... إني آسف... ولم يبق إلا أن أسأل هل
كانت القبلية حلوة !؟ أظن أني سأجن... »
فقالت ، وهي تضحك « إنك مدهش . ولكن هل صحيح أنك تنسى
إلى هذا الحد ؟ أم تراك تتكلف لتعابثني ؟

قلت « لا والله ، ما أذكر أني رأيتك في حياتي .. »

وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش !

فهذه حادثة تربك كيف يكون من المستحيل على أن أعشق ، لأنني
أنسى كل حب ، بل كل عاطفة ، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين
ساعة ، على الأكثر ، ثم تنطوي .

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل ، فأقول إني لم أسأم الحياة
ولم أزهدها فيها ، ولا فترت عنها ، بل أنا أطلب لها ، وأقوى رغبة فيها
مما كنت في أي عهد مضى ، ولست آنس من نفسي عجزاً عن مسابرة
الدنيا ، أو الناس ، فإن الأمر على التقيض ، وأحسب أن الرغبة
في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها
أو قصرها ، أو يفكر في أنها إلى زوال ، لأن ما يحسه من فيض الحيوية
لا يجعل له بالاً إلى شيء من ذلك ، ولأنه يكون مشغولاً بانفاق هذه
الحيوية الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر ، فهمه أن يربح نفسه من
ثقل الضغط ، وأن يفتح « البوابات » كلها لينحدر منها ويخرج ما يجاوز
طاقته ، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم يتقضى الشباب فيسلس
التلفق وتخف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام ، فيتسنى للمرء أن يفكر

بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه في الماضي ، والحاضر ، وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشتهي أن يفوز فيما بقي له من العمر . باضعاف أضعف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل في شبابه ، لأنه كان مغترأ بالعباب الزاخر في شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفا عن التأمل والتدبر ، أما في الكهولة فماذا يغير ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوما بعد ؟؟ ومن أجل هذا يخطيء من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتقر الإقبال ، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل ، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو في شبابه يكون محمولا على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصدده ، وفي كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة يمحرجها إلى حيث ينبغي ، وقد صارت في عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطيء من يحسب الكهولة أضال استمتعا بالحياة ، فإنها أدرى بالمتعة ، وأحسن بها ، وافطن لها ، وأعرف بوجوها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأراني كلما عاجلت ذلك أذهل عنها ، أو استطرده ، أو أغرق خطر أنها في بحر من الدكريات والتأملات .

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة ،
وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبثاً بالحياة أو أكثر فضيلة أو
آثراً لها وللعفة والزهادة في سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض
الإخوان ، فأنشأوا يجادلونني فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون
الحقائق بل تهربون منها ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لأنكم ترون هذا
أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها
أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شاباً كما كنتم ، ولعل الفرق بيني وبينكم
أني كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عيني في نفسي ، والغوص في لجتها
على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث ، وأني لا أحب أن أسمى
الأشياء أحسن أسمائها بل أسمائها الحقيقية ، وأني قد أغالط الناس ، وأخذهم
ولكني أصدق نفسي . وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن
أتناول نفسي ، كلما تيسرت لي الخلوة بها ، وأحطها على كرسي أمامي ،
وأندبرها ، وأجبل فيها عيني ، وأفحصها وأجسها ، وأسبر أغوارها ،
وامتنحن نزعاتها وبواعثها ، والنفس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها ،
ولإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ،
وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التجنى ،
ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هي التي
تركبه في شبابها تركض به من غير أن يكون له رأى أو إرادة ، ومن غير
أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأى والإرادة

إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، مابلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت حياتي ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحلق ، واستشف ، واستجلى ، واستوضح .

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول لا أدري ! كل ما أدريه أني كنت محدولا على متن تيار قوي ، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ، وأشتهي وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعديني وتسحرنى ، فانظر إلى الدنيا بعون أصحابها لا بعيني ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي ، وأنصوّر حياتي وأقيسها على ما يروقي من صور الحياة في هذه الكتب ، وانتحل آمال أصحابها ومخاوفهم ، وهماهم وعزماهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسي ، ثم ازعمنى ندهم وقريعهم فأزهى وأتكبر ، وأغتر ، لأنى أرى نفسي كما رسمها خيالى الذى استمد من هذه الكتب لا كما هى فى الواقع ، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحى هذه الكتب .

واضرب مثلاً - عشقت مراراً ، وقال فى صديقى الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إلى ، فى ذلك الزمان .

أنت فى مصر دائم التهيد بين حب عفى ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إلى يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقى لا تنهى ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فإنما أعنى الآن أنى اشتبهت ، وأنى عانيت هذا
الضرب من الجوع الذى يسميه الناس الحب ، ولكنى لم أكن أدرك
هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، وإنما كان ما أقرأ من الشعر
يغرينى بنشدان الحال ، ويطلقنى كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعنى إلى
إحياء الشعور بالحب إلى نفسى ، فأتوهم أنى محب ، وأنى عاشق ،
فأقضى الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول فى هذا
المحبوب أو ذاك .

وألقى المحبوب ، فإذا كنت أصنع ؟؟ لا شىء أكون معه كما أكون
مع أى واحد من خلق الله ، ولا يخطر لى حتى أن آتمنى بهذا الحسن وأسعد
بنضارته ورونقه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ما أفعل
مع إخوانى بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتى ، وأقصد بين كتبى ، فأروح
أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللا
ذات ألوان شتى ، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات
أو نظرات لم أعبأ بها فى حينها ، وأحملها المعانى التى أريدها ، فأسر بهذا ،
وأتألم لذلك ، وأرى فى هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو
التشجيع ، وفى تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال
هكلما حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !
لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، وإنما كنت أنظم شعراً ،
وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذى أريد العبارة عنه ، والعاطفة التى
أتحيل الصدور عنها ، ووحى لنفسى هذا كله ، وانتهى بأن أعتقد بأن هذا
هو الذى شعرت به حقيقة لا توها ، وأنه هو الذى خامر نفسى لا الذى
أنشأته أنا لها بقوة الإحياء .

ولا يخلو من فائدة فى بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرض
الشعر هو الذى كان المقصود والذى اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة
وإن ما كان من حب متوهم وإنما كان ثمرة هذه الرغبة فى قرض الشعر ،

أى أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسيًا فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أنى صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعاً لشعري ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرقت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفه لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحاءها إلى النفس .

وفى وسع القارئ أن يقيس على هذا . فأنما لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كاللدى نومه غيره تنويعاً مغنطيسياً ، فراهيه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه في نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعى بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنيتها تلك الفتنة ، فأنما أنظر في الكتب ، وفي الحياة ، بعيني ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأنى أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتي إلى رغبتى ، وأوازن جهد السعى وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالى بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستخفى هوى ، أو يغرنى حال ، أو يخرجنى عن طورى أمر ، أو يفقدنى اتزانى فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمع بى شهوة ، ولا تركض بى صبوة ، لأنى أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعدو بها مكانها . ولا أخلط بها بالأوهام ، ولأنى أسير في الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتنى لماذا أفعل الشيء ، فإنى أعرف الجواب الصحيح ، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول - ويمكن أن يصدق القارىء - إنى كنت فى شبابه أواقع الحياة موقعة الهواء ، أما الآن ، فإنى أواقعها موقعة المحترف ، وقد صارت الحياة عندى حرفة ، تعامتها ، وحذفت منها الجانب الذى طلبته ورأيت أوفى لى ، والفرق بين الهاوى والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفى وأهواء نفسى ، طوع إرادتى ، وإراداتى لا تخضع إلا لتقديرى لما ينبغى - ويحق لى فى رأى - أن أفوز به من الحياة . والعمد فى سيرة محقق ، إلى الحد الذى يتيسر للمخلوق الخاضع لسنن الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسى . لأنه يكسبني حظاً من الاستقلال ويجعل لى فيما أشعر نصيباً من الحرية ، فى الحياة ، ولا شك أنه يجعل شعورى بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أى قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

- ٢٠ -

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف
لى يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرص الشعر وكنت
أقول - ولا يخفى على عبث ما أحاول -

وما نظمت من الأشعار إلا علالة
لو أن سلكوا بالقريض يكون ! ،

* * *

وكنت أقول لمن يذكرون شعري :

« فلا تنفسوا شعرا ، على ، مفوفا
له ، لو علمتم ، جانب متخوف
كما نظمت هذه الرياح غمأما
لها من غروب الشمس وشئ مطرف
يهددها مما يضم ، ممزق ..
ومما يوشىها ، مذبذب ومتلف
لنا الله من قوم تذيب نفوسنا
ويجنى سوانا ما نشور ونقطف
ويصدر عنا الناس ربا قلوبهم
ونحن عطاش ، بينهم نتاهف
نلقو شقاء العيش دون نعيمه
على أننا بالعيش أدرى وأعرف

* * *

وأحب أن اتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولى :

« ولكنه ما أخطأنا لذاذة

إذا بلغ السؤل القريض المثقف

إذا هو سرى عن لطيف مفجع

وآنس قلباً موحشاً يتشوف

فما تحفل الدنيا إذا جل ظلمها.

ونحن من الأيام والعيش ننصف »

ولم يكن زعمى أنى أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام
وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على
كاهل صبرى فأصبح :

« لبست رداء العيش عشرين حجة

وثنتين ، ياشوق إلى خلع ذا البرد.

عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجد بها

مراداً لآمال تعلل بالزهد . »

فيوم كان فيض الحياة زاحراً ، كنت أقول ياليتنى ما كنت ، ولم
يكن هذا طبيعياً ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجنى الحرمان ، وقطاف
الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشدة ما أتمنى أن يثقل الزمان
رجله ، ليطول التلبث ، وتقضى النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف
الركب مسيره إلى « فجر لا شيء » كما يقول الحيام فى إحدى رباعياته ؟
وقد صار ما كان يشق على أن أراه ، باعثاً على التسلية ومجلبة للمرور ،
ولم يصدق ظنى حين توهمت فى أيام الشباب الكاذب ، أنى سأقضى حياتى
ثائر النفس ، هائجاً ، أنه ليس لى عن ذلك معدى أو مهرب فقد قلت :

« سكنت ، فما أدرى الفتى كيف يغتدى

تجد به الأشجان طورا وتلعب »

كما قلت على لسان غيري .

بل لم أسكن ، ولكنني نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد
تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسي . ورضيتها
على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعوري
القديم بالملت للحياة كان غير صادق ، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة
عارضة أعانيها . وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة
كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت . فكان يرجني هذا ويخرجني عن
طوري . . ويعصف بأتزاني فأراني أثور وأحاول في مثل هذه الحالة الوقتية
أن أنقص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلي سواء بسواء ، فأروح
أقلد أهنيء الشاعر الألماني ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون
الثورة ، فأقول مثلاً :

سترخي على هدى الحياة الستائر
وتطفأ أنوار ، ويقفر سامر
فهل راق هذا الناس قصة عيشتي ؟
وماذا يبالي من طوته المقابر ؟
تركت لهم من قبل موتى وصية
نظير التي وصت بها لي ، المقادر
وهبت لأعدائي ، إذا كان لي عدى ،
هموى وما منه ، أنا الدهر ، ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهد والفضى
وبالدمع لا يراقا ، ولا هو هامر ،
وبالجلدى في وجهه ليزينه
وبالعرج المشنوء ، والله قادر

وبالضعف والأملاق والبأس والجوى
وبالقسم حتى تنقيه النواظر ،

وللشيب بالأوجاع فى كل مفصل
وبالشكل فى الأبناء والجد عاثر

وكل مقام قد تركت لذى الصبا
وما كنت منه فى الحياة أحاذر

وللناس ألوان الشقاء ، ولانى ،
إذا مت ، لا آسى على من يخامر

ولم يكن لى فى ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فاتنى أن أوصي لهذه
الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة !

وكان عقلى يثوب ، فأطوى هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر
من شعرى . . على أنى كنت هادثا ساكنا ، لما عثرت - وأنا أحاول .

عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدى - على بيتين فيهما غير قليل من خبث
المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلى - والمفروض أنهما يكتبان على
قبر صاحبهما .

أيها الزائر قبرى
اتل ما خط أمامك

ههنا ، فاعلم ، عظامى
ليتها كانت عظامك !

وترجمتى هذين البيتين ، وأنا هادى ، دليل على أن الثورة كامنة
فى النفس وإن كانت لا تبلو فى العادة .

ثم صرت لا يعزيني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب
وإن المآل واحد ، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم
أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتهي أن أكون آخر من في
الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لها أن
هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين (ولا أدري لماذا
لم أجعلهم أربعة أو عشرين !) يصنعون كفنًا للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم ،
ولست أراه غير أني عالم
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة
أليس سوي ما أنت بالعين شائم ؟
هنالك ، لو تدري ، تسدى أكفهم
وتلحم ثوبا عهده متقادماً
وفي مسمعى منهم - وإن كنت لا أرى
وجوههم - أصواتهم والزمازم
يحكون ثوبا ناصعاً فيه تنطوي
- متى عريت - هذى الدنيا والعوالم
من البرد الخزي بيض خيوطه
ومن بلورات القر فيه نمانم
ومن نفس الريح المديد خطوطه
ومن قطع السحب الثقال مراقم

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها

فأشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائى هذه المرحلة أيضا ، فليست ألتمس عزاء ، أو أنشد
ما أغالط به نفسى فى الحقائق . وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس
أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئا من هذا ، ولأنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان
إلى هذا سبيل ، على أنى لا أعنى نفسى بأمرهم ، وحسبى أمر نفسى ،
وهى فى هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده
اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه يذاق
فى الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

الشعب

٩٢ شارع تيسر المينى بالتمهه
تليفون ٣١٨٩٠

رقم الايداع ١٥٥٣/١٩٧١

Bibliotheca Alexandrina



0395438

إحصائيات
المطبوعات
الساجدة

تصدر
عن
الشعب
مؤسسة مجدية عربية

مطبوعات
دار الشعب

الطبعة: ١٩٥٠ شارع قصر العيني بالقاهرة ٣٧٨٠ • مكتبة دار الشعب - ت ١٩١

الترجمة: مكتبة دار الشعب

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م